

رحلة إلى الجزيرة العربية سنة ١٨٠٨

للرحالة لوي جاك روسو
القنصل الفرنسي

ترجمها عن الفرنسية
الأب د. بطرس حداد

الدار العربية للموسوعات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


Shiabooks.net

رحلة إلى الجزيرة العربية سنة ١٨٠٨

للرحالة لوي جاك روسو
القنصل الفرنسي

ترجمها عن الفرنسية
الأب د. بطرس حداد



الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ







الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

خالد العاني: مؤسسها ومديرها العام

كلمة المعرِّب



من عادة السفراء والقناصل والمحلقين بالبعثات الدبلوماسية بعد مكوثهم سنوات عديدة في بلد من البلدان أنهم يكتسبون خبرة عن ذلك البلد، لا بل يتعاطفون معه أحياناً، فيطيب لهم بعد انفكاكهم من عملهم أن يكتبوا ذكرياتهم وانطباعاتهم عن ذلك البلد؛ وكثيراً ما تطلب الجهات الرسمية أو دور النشر منهم إعداد مثل هذه المذكرات لإطلاع القراء والباحثين عن أحوال ذلك البلد.

كانت هذه العادة جارية في القرون الماضية، ولا زالت مستمرة إلى اليوم؛ وقد عمل بها في العقود الأخيرة بعض العراقيين الذين كانوا في خدمة السلك الدبلوماسي.

وهذا الكتاب الذي أقدمه اليوم للقراء الكرام هو واحد من أعمال القنصل الفرنسي «روسو» الذي خدم في إيران والعراق مدة غير قصيرة. وهو ينتمي إلى أسرة عمل عدد غير قليل من أفرادها في خدمة الدولة من خلال السلك الدبلوماسي في الشرق أكان في إيران أم في العراق أم في حلب (سوريا).

هذه الرحلة هي مذكرات طريق، أي ملاحظات سريعة سجلها المؤلف خلال أيام السفر، وفي ظني أنه راجعها قبل إرسالها للنشر إذ

نراه يستشهد بأقوال المؤلفين الأقدمين مثل هيرودوتس وزنيفون وكوينتوس كراسس وغيرهم. ونص رحلته هذا ليس علميًّا أو تاريخيًّا بالمعنى الدقيق، بل هو مذكرات سريعة تستشف في بعض صفحاتها نفس الاستخباراتية، فهو يعد مخططاً لمرور الجيش الفرنسي إلى الهند عبر تركيا وإيران لينافس التغلغل البريطاني في الشرق، وهو يقدم بعض تقاريره لجهات عسكرية قبل إرسالها إلى الجهة المدنية المختصة أي وزارة الشؤون الخارجية.

اهتم المؤلف بالقبائل العربية فذكر أسماء أكثر من مائتي قبيلة وقبيلة، وركز على قبيلتي عنزة وعقيل، ولقد أتعبتني هذه الجداول الطويلة من أسماء قبائلنا المكتوبة بأحرف لاتينية، فحاولت الاستعانة بالمراجع المختصة بهذا الموضوع لأتوصل إلى معرفة الاسم الصحيح، رغم ذلك أرجو أن يعذرني القارئ الكريم إن كنت لم أوفق دائماً بكتابة أسماء هذه القبائل، وعمدت إلى إدخال الأسماء كما وردت في الرحلة بحرفها الأجنبي.

واهتم روسو أيضاً بالخيول العربية إذ كان معجباً بها فذكر أسماء أشهر السلالات وأنسابها وأعطى وصفاً مختصراً وجميلاً لها.

وترك المؤلف لنا في تقريره هذه أسماء جداول وقنوات عديدة مرّ بها، ووصف البادية الغربية أي بادية الشام وسكانها وعاداتهم وما إلى ذلك.

للمؤلف بعض الهوامش رأيت الإفادة منها، فأدخلت بعضها في المتن وتركت البعض الآخر في أسفل الصفحات مشيراً إلى أنها للمؤلف، أما هوامش الكتاب الأخرى فهي من وضعي. وأما الجمل التي وردت ما بين قوسين معقوفين [ ] فقد اقتضتها الضرورة لشرح فكرة المؤلف.

إنّ بعض معلومات روسو استمدها من العوام من أصدقائه أو من مرافقي الطريق فهي تفتقر إلى العلمية، ومن ذلك ما كتب عن مراقد الأولياء قرب بغداد.

صاحب الرحلة بصورة عامة معتدل بكلامه وبحكمه فقد أعجب بالقبائل العربية، وأحب مناخ العراق وقال عنه إنه صحي رغم حرارته العالية في فصل الصيف؛ لكنه يشط أحياناً في كلامه وله شطحات قلم هنا وهناك، ورغم كل ذلك فالرحلة مفيدة وفيها معلومات جيدة.

لقد أعارني «**بيت الحكمة**» النسخة الفرنسية لهذه الرحلة النفيسة فلهذا البيت العلمي العريق والعاملين فيه تقديري العالي.

وأخيراً: يطيب لصديقي الأستاذ عبد الحميد الرشودي كلما قرأ لي كتاباً أو مقالة أن يرسل إليَّ بتعليقاته وملاحظاته البناءة ويقول عنها إنها تفيد لطبعة لاحقة؛ وفي هذه المرة قلت له: يا سيدي إقرأ الرحلة قبل أن أنشرها واعطني ملاحظاتك فهذا أفضل، ففعل. له الشكر والتقدير.

أتمنى أن يستفيد القراء الكرام من معلومات هذه الرحلة، وعلى الله التوفيق.

د. بطرس حداد


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدمة الناشر الفرنسي



إنّ نص الرحلة الذي نُقدِم اليوم على نشره كان قد كتب قبل قرن من الزمان تقريباً[١] من قبل جان باتيست لوي-جاك بارون روسو[٢] Jean Baptiste Louis Jacques baron ROUSSEAU القنصل الفرنسي في حلب. وإننا نجهل حقًّا كيف آل المطاف بمخطوط الرحلة إلى صاحب إحدى المكتبات حيث عثرنا عليه مصادفة قبل سنوات قليلة مضت. ونستطيع أن نفترض بشيء من الاحتمال بأنّ المؤلف كان قد وجهه عن طريق المراسلة إلى أحد الأشخاص لعله السيد باربي دي روكاج Barbie du Rocage من أجل أن يعرضه على المعهد[٣] L'Institut الذي أصبح صاحبنا عضواً فيه في وقت لاحق. لكننا لا نعلم حقيقة الظروف التي أدت بهذه العمل المهم الذي يكمل رحلات روسو في بلاد بين النهرين أن يبقى مخطوطاً كل هذه المدة.

---

(١) قال الناشر هذا سنة ١٨٩٩.

(٢) سترد سيرته في هذه المقدمة.

(٣) يقال «معهد فرنسا» أو ببساطة «المعهد» وهو جمعية العلماء والأدباء إذ يتوج الأكاديميات الخمس المعروفة وهي: الأكاديمية الفرنسية، أكاديمية العلوم، أكاديمية الرقم والأدبيات، أكاديمية العلوم السياسية وأخيراً أكاديمية الفنون (نقلاً عن معجم اللاروس). وانظر: مجلة لغة العرب ٧ (١٩٢٩) ص ٢١٤.

مهما يكن من أمر، ففي الوقت الذي أرادت أكاديمية الرُقم والأدبيات[1] Académie des Inscriptions et Belles Lettres أن تطلق السباق بالدراسات الجغرافية بين المهتمين بتاريخ بلاد ما بين النهرين في أقدم عصوره التاريخية، رأينا من الفائدة بمكان أن نقدم للمهتمين بتلك المنطقة المجهولة إلى اليوم، هذه الملاحظات الثمينة التي تركها لنا مراقب حساس وصاحب خبرة واسعة في هذا المجال.

إنّ التغييرات في الشرق بطيئة، نكاد لا نشعر بها، ولذا فنحن متأكدون من أن نجد في الحاضر آثار الماضي.

لقد احترمنا طريقة روسو في كتابة الأسماء العربية، رغم أنها بعيدة كل البعد عن الطريقة المعمول بها حاليًا، لكنها في كل الأحوال تقدم اللفظ المحلي بأمانة، وهذا هو المهم. ومن الضروري ملاحظة استعماله لحرف w في مكان ou ونرى أنه قد فعل ذلك بتأثير اللغة التركية. أما بالنسبة إلى الاختلافات الأخرى فهو يستعمل اللفظ العربي على علاته، فيكتب Haleb حلب عوض Alep المستعملة عندنا. إنها أمور طفيفة لا تعيق الباحث عن الوصول إلى الإسم الأصلي.

أما بالنسبة إلى أسلوبه في الكتابة فيمكننا أن نقول عنه إنه لا يمت بصلة إلا من بعيد إلى أسلوب قريبه جان-جاك روسو صاحب الإعترافات[2]. والسبب في ذلك أنّ صاحبنا نشأ وعاش طوال حياته في آسيا الصغرى حيث تنتشر اللغات المختلفة: العربية والتركية والفارسية

---

(١) أسسها كولبير (١٦١٩-١٦٨٣) رجل الدولة الشهير سنة ١٦٦٣ وهي مكونة من أربعين عضواً يعنون بالبحوث التاريخية والآثارية.

(٢) جان-جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) كاتب فرنسي وفيلسوف اجتماعي، ولد في جنيف دعا للعودة إلى الطبيعة. من مؤلفاته: العقد الاجتماعي، اميل، الاعترافات. لكن لهذه المؤلفات أثر مباشر في اندلاع الثورة الفرنسية.

ولعله كان يألف هذه اللغات أكثر من لغته الفرنسية. رغم ذلك فإنّ جدول الأعمال التي نشرها طويل ومهم ونجده في معجم كيرار Querard[1]؛ وقد سمحنا لأنفسنا أن نحذف بعض الجمل من مخطوطة المؤلف ظنًّا منّا أنّ ذكر أقوال لفولتير[2] أو ديليل[3] Delille اللذين على ما يبدو كان لهما مكان في نفسه، أما اليوم فقد تضاءلت فائدتهما.

● أسرة روسّو

والآن نتوقف قليلاً لنذكر بكلام موجز أصل أسرة **«روسّو»** التي قدّمت لبلدنا - أي لفرنسا - خدمات جلى في الشرق.... خاصة في مجال العمل الدبلوماسي بصفة قناصل.

يرجع أصل هذه الأسرة إلى انطوان روسو، وهو صاحب مكتبة في باريس، عاش في مطلع القرن السادس عشر، وإذ اعتنق ابنه «ديديه» المذهب البروتستانتي[4] اضطر إلى الابتعاد عن فرنسا فالتجأ إلى جنيف، وهناك مارس مهنة العائلة وهي بيع الكتب، إلى أن توفى نحو سنة ١٥٧٠،

---

(١) جوزيف - ماري كيرار (١٧٩٧ - ١٨٦٥) مفهرس فرنسي وناشر كتب، وهو أول من طبع كتاباً مفصلاً عن الأدب في فرنسا.

(٢) فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) كاتب فرنسي مشهور يعتبر من نوابغ عصره. ولد في باريس وطاف في أوروبا. تزعم حركة الفلسفة المادية وقاوم رجال الدين ونقدهم بقلمه الرشيق اللاذع. مهد السبيل لقيام الثورة في فرنسا. من مؤلفاته: المحاورات الفلسفية، كانديد وغيرها.

(٣) جاك دليل (١٧٣٨ - ١٨١٣) شاعر فرنسي، ترجم أعمال فرجيل إلى الفرنسية، وكذلك قصائد ميلتون.

(٤) تشير هذه التسمية إلى مجموعة المذاهب التي تفرعت من جراء ما يسمى بالإصلاح الديني الذي دعا إليه مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) وانتشر تدريجيًا في أرجاء أوروبا وفي العالم.

وكان اسم حفيده جاك وهو جد صاحبنا وفي الوقت نفسه عم جان جاك فيلسوف جنيف[1].

كان جاك روسو يتعاطى تجارة الجواهر وقد عاد إلى فرنسا لممارسة مهنته، لكن حب المغامرات والأسفار كان يداعب فكره. فانضم سنة ١٧٠٥ إلى وفد بعثة لويس الرابع عشر[2] إلى الشاه حسين[3]. وقد عهدت هذه السفارة إلى السيد فابر الذي اصطحب معه شابة مغامرة اسمها ماري بيتي تلك التي نشر لها مؤخراً كتاب عن مغامراتها عنوانه: «ألف ليلة وليلة لسفيرة في عهد لويس الرابع عشر، ١٨٩٦».

بعد ذلك عاد ومكث في إيران، وصار مع الأيام شيخ الجوهريين العاملين في خدمة التاج، ثم اقترن سنة ١٧٣٧ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين بعد أن خلف ابناً وحيداً سماه جان - فرانسوا كسافييه روسو...

انتقل هذا الشاب بعد رحيل أبيه إلى بندر عباس[4] حيث نال قسطاً حسناً من الربح من خلال عمليات تجارية فاستعاد ثروة العائلة؛ ثم انتقل إلى البصرة واضعاً نفسه في خدمة دولته فأصبح مساعداً للحسابات في شركة الهند في السنوات ١٧٦٢ - ١٧٧٠ وكلفته حكومته بمهمات مختلفة منها تجارية ومنها سياسية فأكملها بنجاح. وفي سنة ١٧٧٢ نيطت به لمدة قصيرة قنصلية بلده في بغداد والبصرة. وبعد احتلال هذه

---

(١) مدينة معروفة في سويسرة كانت معقل رجال الإصلاح الديني على يد كالفن أحد مروجي حركة الإصلاح البروتستانتي.

(٢) لويس الرابع عشر ويعرف بالكبير أو بالملك الشمس (١٦٣٨ - ١٧١٥) بلغت فرنسا في عهده أوج مجدها وكان عصره عصر فرنسا الذهبي في الأدب والفنون.

(٣) الشاه حسين الصفوي (١٦٩٤ - ١٧٢٢).

(٤) ميناء على الخليج العربي، أسسه الشاه عباس لينافس قلعة هرمز، عرف هذا الموقع لدى الأوروبيين باسم غومبرون.

المدينة من قبل الفرس سنة ١٧٧٦[1] عاد إلى فرنسا ليطالب برواتبه المتأخرة وبالتعويض عن الخسائر التي لحقت به. وكان يطيب له أن يسافر من مكان إلى آخر مرتدياً الأزياء الشرقية، وكانت زوجته تعمل مثله... فلما وصل إلى بلده صار موضوع حديث الناس، ونال رتبة قنصل فرنسا في البصرة إضافة إلى مكافأة مجزية، ثم عاد إلى بغداد فوصلها سنة ١٧٨٢، وبعد سنتين انتقل إلى البصرة لأنه كان يحل تارة في هذه المدينة وطوراً في الأخرى.

ولما احتلت القوات الفرنسية مصر سنة ١٧٩٨ حلت على روسو نقمة العثمانيين إذ نهبت أمواله وقيدوه بالأغلال وساقوه إلى ماردين[2]، ورفض بكبرياء افتداء نفسه... حتى هب لنجدته سليمان باشا[3] فخلصه بعد أن قضى أحد عشر شهراً في القيود.

وفي سنة ١٨٠٣ عُين من جديد ممثلاً دبلوماسيًّا ووكيلاً تجاريًّا في بغداد من قبل الحكومة القنصلية[4]، وفي السنة التالية كلفته دولته أن يمهد للعلاقات مع إيران، وأن يعيد المعاهدة بين هذا البلد وفرنسا.. بينما تم تعيين ابنه قنصلاً في البصرة في ٢٧ شباط ١٨٠٥.

في هذه المدة انكب على كتابة «**رحلة من حلب إلى الموصل عن**

---

(١) لونكريك: أربعة قرون، ص ٢٣٣.

(٢) مدينة عريقة في أعالي ما بين النهرين، ذكرها ياقوت: معجم البلدان ٥: ٣٩ وهي اليوم في تركيا.

(٣) هو سليمان باشا الكبير والي بغداد (١٧٨٠ - ١٨٠٢).

(٤) هو النظام الذي قام في فرنسا حسب منطوق الدستور المعلن في العام الثامن من الثورة الفرنسية، وجرى العمل به في الفترة ١٧٩٩ - ١٨٠٤ وبموجبه تم تعيين ثلاثة قناصل كان أولهم نابوليون الذي ما عتم أن أزاح الآخرين فأصبح القنصل الوحيد مدة الحياة ثم أعلن نفسه امبراطوراً على فرنسا (انظر الهامش ١٩).

طريق الجزيرة» وهي تلك الرحلة التي شرع بها في ١٠ نيسان ١٨٠٧ وأتمها في شهر أيار من السنة نفسها.

ولما عُين سكرتيراً ثانياً في المفوضية الفرنسية بطهران (١٤ أيار ١٨٠٧) كتب عندئذ على حسب عادته: «رحلة في فارس عن طريق بغداد» وقد ظهر جزء من هذه الرحلة في «جريدة الرحلات» المجلد ١٤ (١٨٢٢).

وفي كانون الثاني ١٨٠٨ أرسل صاحبنا إلى حكومته مخططاً لمرور الجيش الفرنسي عبر تركية وإيران مع ملاحظات عن الأمكنة والشعوب[١]. وكان التقرير مقدماً إلى السيد السفير الجنرال كاردان؛ ويحتفظ أرشيف وزارة الشؤون الخارجية بمخطوطة هذا التقرير.

يظهر من هذا المخطط - التقرير أنّ نابوليون[٢] كان يحلم أن يسدد ضربته إلى انكلترا في مستعمراتها الآسيوية بزمن يسبق بكثير رسالته المشهورة الموجهة إلى القيصر الكسندر[٣] المؤرخة ٢ شباط ١٨٠٨ والتي يقترح بها على القيصر غزو الهند بجيش قوامه ٥٠ ألف جندي: روسيين وفرنسيين ونمساويين. لكن الحروب التي نشبت مع البرتغال وإسبانيا حالت دون تحقيق هذا المخطط الطموح الذي على ما يبدو لم تتحمس له دوائر سان بطرسبرج[٤] إذ رأى القيصر فيه ذريعة خيالية من أجل تقسيم الدولة العثمانية واحتلال أقاليم الدانوب من قبل الجيوش الروسية.

---

(١) تظهر هنا بوضوح مهمة صاحب الرحلة فقد كان يعمل في خدمة الاستعمار.

(٢) نابوليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١) من أشهر قادة الجيوش في التاريخ الأوروبي الحديث، شن حملات في الغرب والشرق، توج نفسه إمبراطوراً سنة ١٨٠٤؛ دحر في معركة واترلو سنة ١٨١٥ فنفي إلى جزيرة سانت هيلين حيث لقي حتفه سنة ١٨٢١ ثم نقلت رفاته إلى فرنسا ويرقد بسلام في بناء شامخ بباريس يقال له «انفاليد».

(٣) الكسندر الأول قيصر روسيا (١٧٧٧ - ١٨٢٥).

(٤) عاصمة روسيا القديمة تقع على نهر نيفا، عرفت باسم بتروغراد أو سان بطرسبرج وسميت في العهد السوفيتي «لينينغراد» ثم استرجعت اسمها التاريخي.

لم يمكث روسو طويلاً في طهران إذ بلغه خبر وفاة والده في حلب في ١٢ أيار ١٨٠٨ فقرر السفر حالاً للوقوف إلى جانب أمه، فبدأ الرحلة التي وضعها في نص هذا الكتاب والتي استغرقت الفترة بين ٢٢ تشرين الأول إلى ٢٣ كانون الأول ١٨٠٨؛ مع العلم أنّ روسو طبع كراساً عنوانه **«معلومات عن الوهابيين»** أخذه من هذه الرحلة. والنص المخطوط محفوظ في أرشيف دائرة الشؤون الخارجية (ملف: مذكرات ووثائق ١٨٠٨ - ١٨٠٩، ص ١٩ وما بعدها). كما نشر سنة ١٨٠٩ كتاباً بعنوان **«وصف باشوية بغداد»**[١]، ثم عاد ونشر ذلك من جديد بعد أن أجرى عليه تعديلات وإضافات ضمن كتابه «بحث في المذاهب الإسلامية الأكثر شهرة: الوهابية والنصيرية والإسماعيلية» الذي طبع في باريس ومارسيليا سنة ١٨١٨.

في تلك السنة نفسها أي ١٨٠٨ عين قنصلاً عامًّا في مكان والده الراحل فبقي في هذه الوظيفة إلى سنة ١٨١٤ إذ دعي في تلك السنة ليشغل الوظيفة ذاتها في مقر بغداد. وفي هذه المدة نشر كتابه: **«لمحة عن بلاد فارس القديمة والحديثة وتتبعها جداول خاصة بجغرافية هذه المملكة وتاريخها»** الذي طبع في مارسيليا سنة ١٨١٨، وألحقه بكتاب عنوانه: **«مقالات متفرقة في التاريخ والأدب الشرقي»**. وكانت أهم مقالة في هذه المجموعة في وصف باشوية حلب التي هي في الواقع تكملة للرحلة التي نحن بصدد نشرها.

أعد روسو أيضاً في وقت لاحق خرائط بلدان آسيا الصغرى التي اهتم بوصفها في مؤلفاته[٢].

---

(١) كتاب مهم لأنه يركز أخباره على بغداد ولم يترجم إلى العربية على حد علمي، أما الكراس المذكور أعلاه «معلومات عن الوهابيين» فلم يرد ضمن هذه الرحلة بطبعتها التي أقدمنا على ترجمتها.

(٢) راجع ما قلنا بحق روسو في الهامش ١٨.

وفي سنة ١٨٢٤ عُين لوي-جاك روسو قنصلاً عامًّا وقائماً بالأعمال لدى البلاط الملكي في طرابلس (الغرب). وبعد سنتين جرى نقاش حاد مع الباي[1] فغضب وانسحب من العاصمة وركب سفينة فرنسية كانت راسية في الميناء. وإزاء هذا الموقف المتشدد اضطر الباي للرضوخ.

وفي سنة ١٨٢٧ انتشر في فرنسا خبر وفاته، فأسرعت الجرائد إلى نشر سيرته، ومن بينها «مجلة الجمعية الجغرافية»، فعين الملك خلفاً له السيد ميشال الذي كان قنصل فرنسا في قبرص. وفي هذه الأثناء أرسل موظف رسمي حاملاً رسائل رسمية لكي يتسلم القنصلية الفرنسية في طرابلس موقتاً ريثما يأتي القنصل الأصيل، وإذا بمفاجأة عجيبة كانت تنتظره هناك فإنّ السيد روسو كان حيًّا يرزق بلحمه ودمه!... لكن المبعوث العنيد أبى إلا أن يعمل بموجب التعليمات التي كان يحملها، فوضع يده بالقوة على البناية ونزل فيها. ولم يخرج منها إلا بعد وصول أمر صريح من وزارة الخارجية الفرنسية التي اهتدت إلى الحقيقة على إثر رسائل عديدة أمطرها بها روسو نفسه مع شهادات صريحة من الباي نفسه!...

وفي شهر تموز ١٨٢٧ أصدر روسو في طرابلس جريدة بعنوان «الباحث الإفريقي» نشر فيها عدداً حسناً من المقالات بقلمه، ومنها على سبيل المثال: حملة مقررة من باشا طرابلس ضد عرب الجبل، وأخرى: «أخبار عن العرب». وثالثة بعنوان: «أصل الطومبوكتو[2] عند المؤلفين العرب». ثم: «أخبار عن القبائل الساكنة في هذه المدينة».

---

(١) الباي: لفظة تركية تعني صاحب الدار إذ تشير إلى الزعامة. وكانت مستعملة إلى عقود قليلة مضت في المغرب العربي إلى زعماء البلدان.

(٢) الطومبوكتو أو تينبوكتو مدينة في السودان تقع على ضفة نهر النيجر، كانت مركزاً مهمًّا للتجارة وللثقافة الإسلامية. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت ١٩٧٩، ص ٦٣٩.

وقد أعيد نشر هذه المقالات في مجلة الجمعية الجغرافية (العدد ٢٤ تشرين الأول ١٨٢٧). وكان روسو عضواً مراسلاً في هذه الجمعية التي نشرت له رسائل مثيرة حررها من طرابلس أيضاً تدور حول أفريقيا الوسطى، وعن وفاة كل من: لينك[١] وكلابرتون[٢].

في هذه الفترة كان روسو - على ما يظن - يبحث عن المخطوطات العربية القديمة كما فعل سابقاً عندما أكمل رحلته بين بغداد وحلب. وكان قد اشترى منذ زمن بعيد وبتكليف من السيد «أوفاروف» نحو ٥٠٠ مخطوطة لحساب قيصر روسيا (وقد وصفها روسو نفسه سنة ١٨١٨) من آسيا الصغرى وهي - أي تلك المخطوطات - تزين اليوم خزانة الأكاديمية الملكية في سان بطرسبرج.

توفي روسو سنة ١٨٣١ بعد أن رقي إلى رتبة بارون وعين عضواً في أكاديمية الرقم والأدبيات. وترك عدداً من الأولاد، عرف أحدهم المولود في حلب سنة ١٨١١ لأنه خدم الجيش الفرنسي، وصار بعدئذ قنصلاً فخريًا في بروسيا ثم في جدّة مع الإقامة في دمشق مع الأمير عبد القادر...[٣].

رأينا أنه من المفيد تقديم هذه التفاصيل عن حياة السيد روسو صاحب الرحلة وعن أسرته قبل أن نلقي نظرة على المخطوط الذي تركه لنا.

لوي بوانسو

---

(١) الكسندر غوردوك لينك: رحالة إنكليزي (١٧٩٤ - ١٨٤٦) ولد في أدمبرة باسكتلندة وطاف في أفريقيا حيث لقي مصرعه.

(٢) هيو كلابرتون: رحالة اسكتلندي الأصل (١٧٨٨ - ١٨٢٧) جاب السودان وهناك مات.

(٣) الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ - ١٨٨٣) بطل قومي أحب بلاده وحارب الاستعمار الفرنسي. توفي بدمشق.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


بداية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الرحيل من بغداد - التوقف في الهبنة(*)



إنّ وفاة والدي عجلت في رحيلي من بلاد فارس، وجعلت حضوري في حلب ضرورة ملحة. كانت قد مضت مدة شهرين أو نحو ذلك منذ أن عدت من بغداد، ولو طال مكوثي هناك مدة أطول لزاد ألم والدتي وقنوطها. لهذا قررت أخيراً أن أسافر. وكان الانطلاق يوم ١٨ تشرين الأول ١٨٠٨ قبل منتصف النهار بساعتين مصطحباً عائلتي الصغيرة لنذهب ونخيم على بعد نصف فرسخ من المدينة، على ضفة دجلة اليمنى، على حافة الخبيرة الجميلة(١).

(*) تقع منطقة الهبنة شمال غرب الكاظمية وكانت تسكنها قبيلة الهبنة وهي اليوم من المناطق الراقية ويطلق عليها اسم «حي الجوادين».

(١) قال صاحب الرحلة في الهامش ما معناه: هذه بحيرة بيضوية الشكل مقعرة من جهتها العليا، ماؤها اجاج، يكثر فيها السمك والسلاحف أيضاً. مكونة من حوضين من جراء بثوق نهر الفرات التي تغذيها بالماء في أوقات الفيضان السنوي فتبقى راكدة فيها على مدار أيام السنة وتصبح حافاتها صالحة للزراعة، وتنمو على جوانبها أعشاب ونباتات تستسيغها الإبل.

وقوله خبيرة باللفظ المحلي يعرف في الموصل بالخبرة أي الموضع المنخفض الذي يتجمع فيه الماء سواء أكان ماء المطر أو ماء الفيضان، ويكون في البراري فيعتمد عليه البدو ورعاة الأغنام لسقي ماشيتهم في أكثر أشهر السنة.

كانت جماعتي وأمتعتي بانتظاري هناك منذ بضعة أيام في مكان منفصل عن المسافرين الآخرين في القافلة[1]. وكان لنا خيمتان نظيفتان تؤمنان لنا شيئاً من الراحة في ذلك الفصل القاسي. وكان لنا ١٢ كيساً من الطعام المتنوع يكفينا لخمسة وثلاثين يوماً لا بل أربعين وهي المدة اللازمة لقطع هذه المسافة. إضافة إلى ثلاثين قربة معدة لتملأ بالماء الضروري في البادية حيث لا توجد مياه. وأخيراً كان لنا تختروان[2] يحمله جملان أعد للرحلة لكل من زوجتي وولديّ، هذا ما كانت عليه المعدات الضرورية لرحلة طويلة ومتعبة والتي انتهت لحسن الحظ بنهاية حسنة.

لا تتشكل القافلة عادة إلا ببطء شديد، وكانت قافلتنا بقيادة شخص اسمه منصور العبيدي وهو من قبيلة العكيل[3]، وهو رجل صاحب خبرة طويلة على ما يظهر وشجاع؛ ولا أبالغ إن قلت عنه إنه يتصف بالأمانة، وهذه فضيلة نادرة بين أهل عربستان الجشعين والطماعين.

ولما كانت الرحلات التي تقطع البادية قد أصبحت منذ سنوات خطرة جدًّا بسبب غزوات الوهابيين المتكررة[4]، فإنّ هذا الشيخ العربي

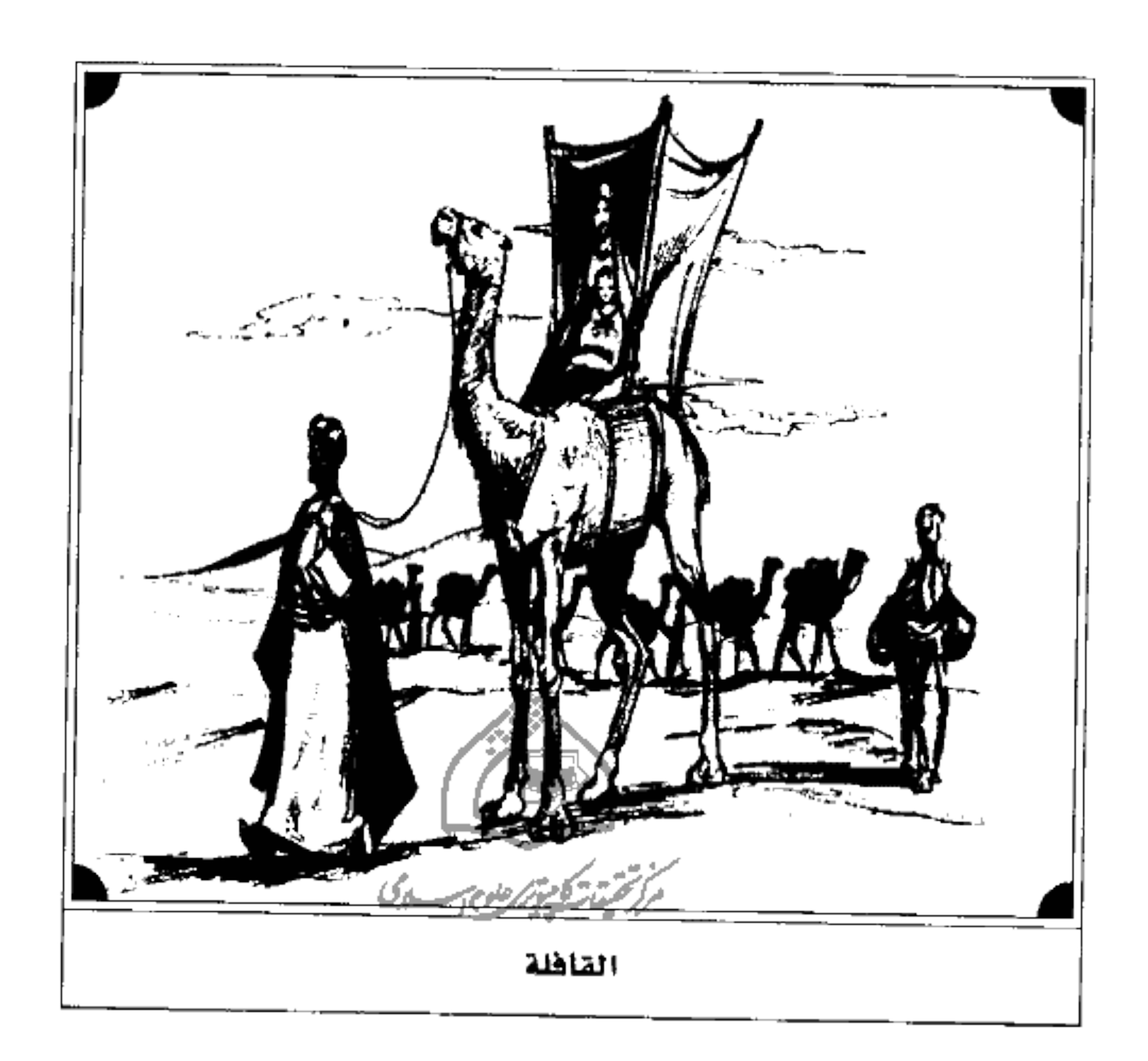
---

(١) قال كروان (= فارسية) يريد القافلة.

(٢) تختروان (= فارسية) تخت متحرك أي محمول ومغطى لاستعمال الأمراء في تنقلاتهم وأيضاً لاستعمال المرضى والمقعدين الذين يريدون تأدية مناسك الحج، ويوضع على جملين أو حصانين.

(٣) قال «اركيل» وأظنه يريد عقيل أو عكيل وهو اسم قبيلة كانت تسكن الزبير كما سيرد بعد أسطر، عرفت بقيادتها القوافل عبر بادية الشام.

(٤) حركة دينية أصولية تنسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) نشأت في نجد واتخذت طريقة العنف في فرض مبادئها فشنت الغارات المتتالية على العراق. انظر: الشيخ رسول الكركوكي: دوحة الوزراء، ص ٢٠٤؛ العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٦: ١٧٧ و٣٣٦ - ٣٣٧؛ علي الوردي: لمحات اجتماعية ١: ١٧٨.



القافلة

«منصور العبيدي» تعهد بأن يأخذني عن طريق الجزيرة، أي أرض ما بين النهرين سائراً بمحاذاة الضفة اليسرى للنهر حتى مصب نهر الخابور وعند وصولنا إلى هناك نعبر عندئذ في مخاضة يعرفها فندخل في منطقة حلب. ولكن - كما سنرى لاحقاً - فإنّ مخططنا لم يتحقق. فقد أخذنا الطريق المتبع من قبل القوافل أي طريق الشامية[1] أي طريق الشام فهو أقصر مسافة وأقل نفقة، ولو أنه أصعب الطرق وأقلها أمناً.

ولما كنت قد ذكرت قبل قليل **«العكيل»** فلا بأس أن يتعرف عليهم القاري بكلام موجز إلى أن نعود إلى ذكرهم أكثر من مرة خلال الرحلة

(١) هو الإسم المنتشر بين العرب للبادية الممتدة من أعالي الفرات إلى منطقة نجد.

وحوادثها، إذ ستعطينا أكثر من فرصة للتطرق تفصيليًّا إلى نظام حياتهم وإلى مختلف عاداتهم.

يشكل هؤلاء العرب قبيلة. أفرادها هم رجال قتال وتجارة في الوقت نفسه. ورغم أنها ليست قبيلة كبيرة العدد أو من القبائل النبيلة[1]، لكنها تتمتع بموقع متقدم في ولاية بغداد وبثقة تجار هذه المدينة. وقد اكتسبت كل ذلك من خلال نشاطها وشجاعتها إضافة إلى أمانتها؛ وكان رجال هذه القبيلة بما عرفوا من نشاط وحيوية سنداً وحماية للباشوات المعينين لبغداد من قبل الباب العالي العثماني ضد تدخلات الانكشاريين[2] المتعجرفين ورغباتهم الجامحة.

إنّ مكان سكناهم الرئيس هو في الزبير قرب البصرة، لكنهم يتواجدون في مدن أخرى مثل بغداد ودمشق وحلب. ولهم دون غيرهم من القبائل امتياز إعداد القوافل وإرشادها في البوادي. وليس في أفراد القبيلة من ليس هو إما جنديًّا أو تاجراً أو راعي جمال.

اضطررت للبقاء في «الهبنة» نحو أسبوع بانتظار أحمال القافلة التي كانت تصل إلينا شيئاً فشيئاً. وخلال مدة الانتظار هذه كان أصدقائي يأتون يوميًّا من بغداد لزيارتي وكنت أستمتع بهواء الريف المنعش وأتسلى بالتجوال في ضواحي المدينة فهي رائعة حقًّا.

---

(١) إنها ليست قبيلة صغيرة على ما يفهم من اسمها المصغر بل هي مجموعة أفراد ينتمون إلى قبائل مختلفة لهم مكانة متقدمة في الولاية كما اعترف المؤلف نفسه، وكانوا يسكنون في جانب الكرخ لذا أطلق الناس عليه اسم: صوب عكيل.

(٢) الانكشاري (= تركية) تعني الجند الجديد. وأفراد هذا الجيش من أطفال النصارى الذين يسبون في الحروب وينشأون تنشئة دينية صرفة دون أن يعرف الواحد منهم عن أبويه شيئاً، وتنحصر تربيتهم في تعليمهم أحكام الدين الإسلامي مع إعدادهم للحرب والبلاء فيها (قاله الأستاذان مصطفى جواد وفؤاد جميل: بغداد مدينة السلام تأليف كوك ٢: ١٤١ الهامش ٧).

يقول المؤرخ كوينتس كراسس[1] بأنّ أشعة الشمس والأبخرة المتصاعدة من جراء لفح الشمس للأرض يؤديان إلى موت الحيوانات، وبأنّ الأرض والهواء تحت هذه السماء القاسية يصبحان في غليان وكأنهما في آتون. لكني أظن أنّ مؤرخ الاسكندر قد بالغ في رأيه هذا، فإني أرى أنّ صيف هذا البلد ليس أقسى مما هو في بلاد فارس أو في سوريا.

مهما يكن من أمر فإنّ هذا البلد الواسع الجميل - كان - كما هو معروف - مهد البشرية الناشئة، أما الآن فإنّ سكانه البدو وأهل الريف يقدمون صورة حية للحياة البسيطة والمستقلة كما كان عليها الإنسان قديماً.

يطلق العرب على هذه الأرض اسم «الجزيرة»[2] التي تعني الأرض الواقعة بين نهرين، وهذا هو الواقع فإنها تقع بين نهري دجلة والفرات، فالأول يحدها من الشرق والآخر من الغرب؛ وينتصب في الشمال جبل طوروس، بينما يحدها جنوباً نهر الفرات أيضاً الذي يتجه في تلك المنطقة شرقاً.

لقد ورد ذكر هذه الأرض في الكتاب المقدس إذ كانت موطن الجنس البشري قبل الطوفان ومن بعده...[3]

---

(١) مؤرخ لاتيني من أبناء المئة الأولى للميلاد، له كتاب «تاريخ الإسكندر» وهو كتاب أدبي أكثر من أن يكون في التاريخ.

(٢) ذكرها ياقوت بهذا الإسم في معجم البلدان ٢ : ٧٢.

(٣) في كلامه عن جنة عدن (تكوين ٢ : ٨ - ١٤) أو عن نهر دجلة وهو أحد أنهر جنة عدن الأربعة (تكوين ١٤ : ٢؛ دانيال ١٠ : ٤) وكذلك نهر الفرات الذي يسميه العهد القديم النهر العظيم أو «النهر» فحسب (تكوين ١٤ : ٢؛ ١٨ : ١٥ وغيرها). وانظر (سفر الرؤيا ١٤ : ٩ و ١٢ : ١٦) وورد في العهد القديم ذكر مدن قديمة في بلادنا مثل: أور وبابل وكالح ونينوى وغيرها.

من المؤسف أنّ هذا البلد العريق لا يقوم في وسطه حاليًّا غير بعض المدن الخربة لا أكثر، ومساحات واسعة من الأرض على مد البصر حيث تعمل الطبيعة عملها لعدم وجود يد البشر الموجهة، ولذلك تتلاشى البلاد وتتدهور تدريجيًّا.

إنّ الأماكن التي تتمتع بشيء من الأهمية الواقعة في هذه المنطقة هي المدن القائمة على ضفاف أحد النهرين، وهي: الموصل، تكريت، ديار بكر، بيره جك والرها[١] وهي أورفا التي عرفت في المصادر القديمة باسم «إديسا» وهي في وسط هذه المنطقة. كذلك هناك مدينتان مهمتان هما ماردين ونصيبين وتقعان إلى الشرق منها.

هناك أنهار وينابيع عديدة كالخابور مثلاً وجلاب[٢] والثرثار وغيرها. إضافة إلى قنوات عديدة تخرج من دجلة أو من الفرات فتسقي الأرض بمياهها العذبة.

---

(١) البيرة أو بيره جك تقع على نهر الفرات انظر ياقوت: معجم البلدان ٧٨٧: ١؛ وعن الرها انظر المرجع نفسه ٢: ٨٧٦؛ وعن ديار بكر انظر المرجع نفسه ٢: ٦٣٦.

(٢) معجم البلدان ٢: ٩٦.

الإمام(*) موسى



كانت الليلة الأولى التي أمضيتها في خيمتي ذات متعة خاصة، فالمكان جديد والهواء عليل، فتظافرت الظروف لتجعل من رقادي هادئاً ولذيذاً. وكان صاحبنا «منصور» قد أقام عدداً من الرجال حول أمتعتنا لحراستها، إضافة إلى خدمي الذين كانوا يتناوبون الخفارة.

في صباح اليوم الثاني استيقظت مع بزوغ الغزالة لتقع عيناي على قبة **«الكاظم»**[1] المذهبة التي تقع على بعد نصف فرسخ[2] من مكان خيامنا.

يطلق على هذا الموضع اسم «الإمام موسى» وهي ضيعة كبيرة يسكنها الشيعة، وهناك ضريح [الإمام] موسى [بن جعفر] وهو حفيد الإمام محمد أحد الأئمة الاثني عشر من سلالة الإمام علي[3] ويقال لتلك الجماعة «قزلباش»[4].

(*) كتب في النص «إمان» Iman وتكرر اللفظ هكذا فهو ليس خطأ مطبعيًّا.

(١) قال في النص «كادر» Kadeur وهو خطأ.

(٢) lieue مقياس للمسافة اختلف على مر العصور عرّبته بكلمة فرسخ، وهي مسافة مسيرة ساعة من الزمان أو نحو ثلاثة أميال أي حوالي خمسة كيلومترات.

(٣) هو موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام. توفي سنة ١٨٣ هـ. انظر: تاريخ الطبري ٦ : ٤٧٢؛ ابن الخطيب: تاريخ =

إنّ المشهد والضريح الذي يضم رفاته جرى تشييدهما من جديد تقريباً، وزينا بنقوش كثيرة على حساب الخصي المشهور «محمد خان» وهو عم وسلف «فتح علي شاه»[1]، وكان الرجل مزيجاً غريباً من الورع المضطرم والقسوة الشنيعة.

يضم هذا المقام حاليًّا كنوزاً طائلة كانت بالأصل مخبأة منذ أجيال طويلة في النجف ذاك الموضع المقدس الذي يضم ضريح «علي»، وقد نقلت إلى هنا منذ شرع الوهابيون بشن الحملات على ذلك المكان بالذات أي النجف فنشبت معارك ضارية إذ كانوا يصبون جام غضبهم عليه[2].

ومن بين التحف الثمينة التي يضمها - على ما بلغني - قطعة نسيج من اللؤلؤ الدقيق. تبلغ مساحتها عشرة أقدام مربعة. كان قد أرسلها نادر شاه بعد عودته من حملته على الهند لتوضع على ضريح حفيد الرسول ﷺ إذ كان مقتنعاً بأنّ نجاحه في تلك الحملة الشهيرة ما كان يتم لولا مساعدته.

ولا بد من القول بأنّ كل المجوهرات المعروضة أمام أنظار الزوار

= بغداد ١٣ : ٣٢؛ ودفن هناك أيضاً محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى ابن جعفر عليهم السلام المتوفى سنة ٢٢٠ هـ انظر ابن الخطيب: تاريخ بغداد ٣: ٥٥ وكذلك الشيخ محمد حسن آل ياسين: تاريخ المشهد الكاظمي، ص ١٧ وما بعدها.

(٤) قزل باش (= تركية) قزل أي أحمر وباش أي رأس، وهو غطاء رأس لبعض جنود الفرس ولرماة النبال. كما إنه يستعمل كتاج فخري يمن به الشاه على شخص إظهاراً لرضاه عنه (انظر: رحلة ديللافاليه ترجمة الأب بطرس حداد، بغداد ٢٠٠١، ص ١٥٨). ولعل روسو استعلها هنا إشارة إلى الإيرانيين الذين كانوا يسكنون بكثرة في تلك المنطقة. وهناك تفسير آخر في مجلة لغة العرب ٩ (١٩٣١) ص ٤٦٧ فليراجع.

(١) آل ياسين: تاريخ المشهد الكاظمي، ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) لونكريك: أربعة قرون، ص ٢٥٤؛ وعن الكنوز التي نقلت من النجف خوفاً عليها من الوهابيين انظر علي الوردي: لمحات ١ : ١٧٨.

الذين يقصدون هذا المكان المقدس ما هي إلا هدايا ثمينة من مختلف الأمراء ومن الأثرياء من بلاد فارس ومن الهند، فهم إذ يريدون التعبير عن حبهم لأعظم أوليائهم يقدمون له أثمن ما عندهم وأندر الأشياء التي يملكون.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

القنصل الإنكليزي



كان القنصل الإنكليزي في بغداد السيد ريتش[1] Ritche مخيماً في تلك الأيام في أطراف الكاظم. وسبق لي أن ذكرت في كتاباتي السابقة - في القسم الثالث من مذكراتي - الأسباب التي اضطرته إلى ترك مقره الرسمي في بغداد والمجيء إلى هذا القفر للإقامة فيه. والجدير بالملاحظة أنه رغم الحظر السياسي الذي فرض عليه، فإنّ البذخ والرفاهية الصارخة التي تهيمن على طريقة حياته هنا في القفر، كانت تجذب إليه يوميًّا عدداً من النفوس العميلة التي تأتيه خفية من بغداد، لأنّ الذهب الإنكليزي المخرِب يعمي العيون، ويحول أصحابها إلى عبيد.

---

(١) كلاوديوس ريتش هو المقيم البريطاني في بغداد (١٨٠٨ - ١٨٢١) عمل بكل قواه وبذل المال بسخاء من أجل هيبة المقيمية وترسيخ الوجود البريطاني في العراق. تجول في بلادنا وزار آثارها. اصطدم بالوالي العنيد داود باشا والي بغداد، ص ١٩٣؛ له رحلة نقلها إلى العربية بهاء الدين نوري، بغداد - ١٩٥١، كونستانس. م. الكسندر: بغداد في الأيام الخوالي، ترجمة سعيد أحمد الحكيم، أبو ظبي - ٢٠٠١ ص ٩٤ - ٩٥.



قبر الست زبيدة　　　　جامع الشيخ معروف

مراقد قرب بغداد: تخطيط المؤلف

المراقد القديمة المتناثرة حول بغداد



تقع هذه المراقد على مسافة قريبة من سور الكرخ، وهو القسم الواقع في الضفة اليمنى من النهر، وهذه هي:

١. مرقد الشيخ معروف الكرخي

٢. مرقد الشيخ جنيد

٣. مرقد الشيخ محمد حربي

٤. مرقد الشيخ داؤد

٥. مرقد الشيخ منصور الحلاج [كتبه Ettadje]

٦. مرقد الشيخ أحمد

٧. مرقد الشيخ سري السقطي

٨. مرقد الشيخ ذنون المصري

٩. مرقد النبي يوشع

١٠. مرقد الست زبيدة

١١. مرقد بهلول دانا

ونشاهد في الموضع نفسه أكواخ أقل بروزاً وأهمية فهي لا تستحق الذكر. وهذه ملاحظات تاريخية سريعة عن الأشخاص الذين ورد ذكرهم أعلاه.

● الشيخ معروف الكرخي[١]

ولد عام ١٥٠ هجرية من والدين نصرانيين في ضاحية الكرخ من بغداد، واعتنق الإسلام بتأثير الإمام الرضا الذي كان مؤدبه في الفقه، وهو الذي أرشده وقاده في طريق التقوى. توفى في بغداد في الخمسين من عمره بعد أن اشتهر بالورع والزهد، فأقام له أتقياء المسلمين بناء جميلاً فوق ضريحه، ويزوره الناس باستمرار تعبيراً عن إكرامهم له.

وكان هذا الشيخ يردد على سامعيه ما معناه: أنّ الإنسان السخي المقبول عند الله هو ذاك الذي يفي بوعوده دون تردد، ويحمد بلا محاباة، ويصنع المعروف بلا مباهاة[٢].

● الشيخ الجنيد[٣]

واسمه الأصلي أبو القاسم، ومسقط رأسه بغداد، ويدعى أيضاً «طاووس العلماء»[٤].

---

(١) الشيخ معروف بن فيروز الكوفي، أبو محفوظ أحد أعلام الزهاد والمتصوفين (ت ٢٠٠ هـ = ٨١٥ م). انظر تاريخ بغداد للخطيب ١٣: ١٩٩ - ٢٠٩؛ وفيات الأعيان لابن خلكان ٤: ٣١٩.

(٢) لعل النص الأصلي هو «... للصفاء علامات ثلاث، وفاء بلا خلاف - وقيل: بلا خوف - وعطاء بلا سؤال، ومدح بلا جود...». الأصبهاني - أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠ هـ) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، ١٩٣٨ المجلد ٨: ٣٦٧؛ عزيز السيد جاسم: متصوفة بغداد، ص ٩٣؛ السلمي: طبقات الصوفية، ص ٨٩.

(٣) الجنيد البغدادي، أبو القاسم (ت ٢٩٧ هـ = ٩١٠ م) صوفي مشهور. انظر: تاريخ =

وقد استحق لقب التعظيم هذا نظراً لسعة علومه.

لقد سألوه يوماً: مع أي نوع من الناس نرتبط ونتبادل الكلام؟

فأجاب: مع أولئك الناس الذين أعانوكم ونسوا فضلهم![1].

مات سنة ٢٩٧ للهجرة. واحتفظ المسلمون بذكراه بكل إجلال. وينسبون إليه قدرة عجيبة في مساعدة - النساء - العواقر على الحمل[2].

● منصور الحلاج[3]

مال منذ نعومة أظفاره إلى دراسة الفلسفة. وفي العشرين من عمره

= بغداد للخطيب ٧: ٢٤١؛ قبره موجود في مسجد كبير ويزار، انظر الآلوسي: تاريخ مساجد بغداد وآثارها، بغداد ١٣٤٦ هـ، ص ١٢٣.

(٤) من ألقابه: «... سيد الطائفة ولسان القوم وأعبد المشايخ وطاووس العلماء والمحققين وسلطان الزهاد...». انظر صفاء الدين عيسى بن موسى البندينجي: تراجم الوجوه والأعيان المدفونين في بغداد وما يليها من البلدان، ص ٢٠٨ (مخطوطة - الآثار - تحت رقم ١١٣٦٠) مع الشكر للأخ زين النقشبندي. طبع الكتاب مؤخراً بعنوان: جامع الأنوار في مناقب الأخيار، تحقيق أسامة ناصر النقشبندي ومهدي عبد الحسين النجم، ص ٢٢٩.

(١) لعل الأصل كما أورده السلمي: قيل له: «من أصحب؟» فقال: «من يقدر أن ينسى ماله. ويقضي ما عليه» طبقات الصوفية، ص ١٦٢.

(٢) انظر مجلة لغة العرب ٣ (١٩١٣) ص ٤٥١ المقال: خرافات عوام البغداديين: وتتوسل المرأة أمام ضريح الشيخ جنيد مبتهلة: «دخيلك يا شيخ اجنيد حبلني وانطيني وليد»! التكريتي: أمثال بغداد العامية، الرقم ٢٣٥٠.

(٣) كتبه المؤلف هتاج Hattadje وفي صفحة سابقة أتاج Ettadj وكلاهما خطأ. وهو أبو المغيث الحسين بن منصور (ت ٣٠٩ هـ = ٩٢٢ م) عالم وصوفي مشهور أخذ عن الجنيد البغدادي. له مؤلفات عديدة لم يبقِ الزمان منها إلا كتابه «الطواسين». اتهمه المعتزلة بالشعوذة فأثار حوله الجدل فقدسه البعض وكفره آخرون. حكم عليه بالسجن ثم عذب وقطعت أطرافه وضربت عنقه وأحرقت جثته ثم ذري رماده في =

ترك البيت الوالدي وانزوى في خلوة مخصصاً وقته للتأمل من أجل أن يطهر ذاته من كل الأمور الحسية ويعزلها من أجل أن تبقى مستغرقة بالتأمل وتتفانى في الألوهية؛ واعتقد بعد ذلك أنه قد توصل إلى الكمال الأسمى. ولذلك كان يردد في كل لحظة: «أنا الحق»[(١)].

أما المسلمون فقد ساءهم هذا التصرف واعتبروه كفراً فثاروا عليه وطلبوا مثوله أمام القضاء ليقول الشرع فيه كلمته. فحكم عليه بالموت بقطع رأسه، وقبل صعوده إلى منصة الإعدام التفت هذا الشيخ صاحب الرؤى إلى القضاة الذين أصدروا الحكم عليه قائلاً لهم وهو يضرب الأرض بقدميه: «إلهكم هنا». وبعد أن تمّ إعدامه، قام أحد مريديه فحفر في الأرض أمام الجميع في المكان الذي أشار إليه الحلاج فأخرج صندوقاً مليئاً بالذهب، فصرخ قائلاً: **«هذا هو الإله الذي تكلم عنه معلمي والذي تعبدونه في الواقع»**.

● الشيخ سري السقطي[(٢)]

كان سري تلميذاً للشيخ معروف المار ذكره، مقتدراً في علوم التوحيد، متميزاً بروح الورع والتقوى. وكانت له عادة غريبة أنه كان ينظر صباح كل يوم في المرآة ليتحقق من أنّ ذنوبه لم تسود وجهه[(٣)].

مات عن عمر يناهز التاسعة والخمسين[(٤)].

= دجلة - انظر الكامل لابن الأثير ٦: ١٦٧ - ١٦٩؛ تاريخ بغداد للخطيب ٨: ١١٢.

(١) البندينجي: تراجم الوجوه والأعيان، ص ٢٣٠؛ النص المطبوع، ص ٣١٩ وما يليها.

(٢) هو خال الجنيد وأستاذه، من كبار المتصوفة. بغدادي المولد والوفاة (ت ٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م). تاريخ بغداد للخطيب ٩: ١٨٧ - ١٩٢؛ البندينجي: تراجم الوجوه والأعيان: ص ٢٧٥ (المطبوع ص ٣٨١).

(٣) أبو القاسم عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية، ص ٤٠ و ١٩٩.

(٤) بل عاش أكثر من ذلك بكثير كما ورد في تاريخ بغداد للخطيب ٩: ١٩٢.

● النبي يوشع

إنه على الأرجح النبي هوشع المعروف عند اليهود، وهو أحد الأنبياء الاثني عشر الصغار[1]. أيكون مدفوناً في بغداد أم في مكان آخر، الله أعلم! لكن الواقع أنّ حشود السكان تزور هذا المرقد باستمرار في كل يوم سبت من الأسبوع مكملة هذا الفعل التقوي على اعتبار أنّ هذا المكان يضم قبره. كما إنّ الأتراك أنفسهم يحترمونه ويقدمون إكراماً له الشموع والبخور.

● الست زبيدة:

هي زوجة الخليفة هارون الرشيد[2]. وبصفتها هذه وبمواهبها الأخرى المتميزة صارت في بغداد على شبه زنوبيا[3] لقد كان الخليفة يحبها حبًّا جمًّا حتى أنها اشتركت معه في الشؤون العامة العليا.

(١) في العهد القديم من الكتاب المقدس أسماء أنبياء عديدين، ويميز الدارسون إلى أنبياء كبار هم: أشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال، وإلى أنبياء صغار وهم ١٢ نبيًّا، وتسميتهم هذه ليست استصغاراً بهم، حاشاهم من ذلك؛ بل لصغر النصوص التي وصلت إلينا باسمهم. ويوشع أو هوشع هو واحد منهم وقد عاش في القرن الثامن ق.م.؛ وهو لم يأت إلى العراق. فلعل اليهود الذين عاشوا في بلادنا أجيالاً كثيرة شيدوا هذا المكان إكراماً له وتبركاً لا لأنه يضم رفاته. والأصح أنه لشخص آخر يحمل الإسم نفسه: غنيمة: نزهة المشتاق، ص ٢٣٣.

(٢) هي بنت جعفر بن المنصور، زوجة هارون الرشيد وأم الأمين (ت ٢١٦ هـ = ٨٣١ م) وهي ليست دفينة هذا المرقد بل بالأخرى زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله (ت ٥٩٩ هـ = ١٢٠٢ م). لأنّ زبيدة دفنت في مقابر قريش. فالسائح ينقل تقليداً متواتراً عند العوام لا أكثر وعلى المرقد قبة مخروطية جميلة، انظر: عطا الحديثي وهناء عبد الحق: القباب المخروطية في العراق، بغداد ١٩٧٤، ص ٢٧.

(٣) زنوبيا هو الإسم الذي يطلقه الغربيون على ملكة تدمر ويقولون عنها أنها انكسرت أمام جيوش أورليانوس الروماني ووقعت في أسره. بينما يقول المؤرخون العرب أنها =

كان في مقبرتها لوح، لم يعد موجوداً فقد بحثت عنه فلم أعثر عليه. هذا مفاده: هنا ترقد الملكة العظيمة التي كانت زينة قصر أمير المؤمنين وفرحته. امتدت أفضالها من البر إلى البحر. هي زهرة رائعة قاومت بعض الوقت في بستان الحياة ريح سموم الموت. لكنها تهاوت في آخر الأمر فصارت تراباً. فيا أيها العابر من هنا أيًّا كنت، احترم هذا التراب البارد، وحاول أن تقتدي بالفضائل التي كانت تتمتع بها طالما كانت على قيد الحياة[1].

● بهلول دانه[2]

يشير هذا اللقب عادة إلى الإنسان الحكيم. أما الشرقيون فإنهم على عكس ذلك لقبوه بالمجنون إشارة إلى طريقته في الحياة، تلك الطريقة الغريبة التي لم تكن تتفق مع أصله ومكانته الاجتماعية.

= الزباء بنت عمر بن الظرب التي قتلت جذيمة الوضاح فاحتال ابن اخته عمرو ودخل قصرها ليثأر لخاله لكنها فضلت الموت على طريقتها إذ امتصت سمًّا قاتلاً مرددة: «بيدي لا بيد عمرو...» وقصتها مشهورة نجدها في كتب التاريخ.

(١) أورد السائح الدانيماركي نيبور سنة ١٧٦٦ نص كتابة قال إنها كانت في المرقد، وهي مختلفة عن هذا النص انظر: رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة د. محمود حسين الأمين، بغداد - ١٩٦٥، ص ٣٨.

(٢) هو بهلول بن عمرو الصيرفي (ت نحو ١٩٠ هـ = ٨٠٦ م) ولد في الكوفة ومات ودفن في بغداد. الزركلي: الأعلام ٢: ٥٦؛ السامرائي: مراقد بغداد ص ١٠٣؛ ينوه الجاحظ باسم بهلول فهل يكون دفين هذا المكان؛ انظر الجاحظ: البيان والتبيين ٢: ١٧٩ ط الفكر للجميع ١٩٦٨؛ النيسابوري، الحسن بن محمد بن حبيب المتوفى سنة ٤٠٦ هـ: عقلاء المجانين، ط محمد بحر العلوم، النجف ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٨ م، ص ١٧٦؛ مجلة لغة العرب: خرافات عوام البغداديين ٣ (١٩١٣) ص ٤٥١؛ بينما يقول د. مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسة: دليل خارطة بغداد، ص ٢١٤ «لم يرد لبهلول ذكر في أي مصدر تاريخي...». وانظر أخيراً: د. كامل مصطفى الشيبي: البهلول بن عمرو الكوفي، بغداد ٢٠٠٤.

يتفق الرواة العرب على القول أنّ بهلول كان شقيق الخليفة هارون الرشيد، ولذلك منحه رتبة مهمة إذ أقامه كبير أمناء القصر؛ ويضيفون بالقول: إنه ملّ حياة البذخ والدسائس التي كانت تحاك في القصر فتركه فجأة على غفلة من أهل الدار وذهب ليعيش في البرية في وسط القبور. وكم من مرة رأوه عارياً يتجول بين اللحود متأملاً في عظام الموتى. وعندما كانوا يوجهون إليه أسئلة كان يجيب عنها دائماً بتعقل؛ لا بل كان يقرأ المستقبل أحياناً.

تروى عن بهلول نكات كثيرة. بعضها ممتع حقًّا. وقد حفظها لنا كتاب «ناجرستان». وسأكتفي في هذه العجالة بذكر اثنتين لا أكثر: «اسمع يا بهلول - قال له الخليفة يوماً - أريد أن تعدّ لي قائمة بمجانين بغداد». فأجابه على الفور: «هذا عمل طويل يا مولانا، لكن إن شئت أن أحضر لك قائمة بأسماء العقال فهذا أمر سهل»!

ومرة أخرى أراد أحد العابثين في مداعبته فقال له: لقد عينك الخليفة يا بهلول مشرفاً على الذئاب والدببة والقرود، وعلى أرانب المدينة! فأجابه ضاحكاً: يا ما أحلى ذلك، فإنكم يا سادتي والحالة هذه، أصبحتم من رعاياي!

وصف جزيرة الدجيل[1]

كنتُ يا صديقي منشغلاً جدًّا في إعداد حقيبتي كي لا تضيع ورقة من

---

(١) قال المؤلف في الهامش (ص ١٤) إنّ هذا الوصف جاء في رسالة وجهها إلى صديقه السيد جوانان من موقع الهبنة ببغداد بتاريخ ٢٤ تشرين الأول ١٨٠٨.
يخرج دجيل من نهر دجلة من أعلى بغداد، ولفظ اسمه بالتصغير يشير إلى انتسابه إلى دجلة؛ ياقوت: معجم البلدان ٢:٥٥٥؛ أحمد سوسة: ري سامراء، ص ٤٩٢ وما يليها.

أوراقي أثناء الرحلة. كما كنت منشغلاً أيضاً في مراجعة ما في تلك الأوراق؛ فوقعت في يدي ورقة كنت أعددتها سابقاً للسيد باربيه دي بوكاج ذلك الجغرافي الخبير، وفيها كنت قد كتبت على طلبه وصفاً مختصراً لجزيرة دجيل الصغيرة. وإذ ليس في جعبتي اليوم موضوع مهم أتحدث عنه، لذلك سوف أدرج هنا خلاصة تلك الرسالة. وبذلك ستطلع على موقع يعتبر من أجمل المواقع في ولاية بغداد، والذي لم يرد ذكره في أية خارطة لهذه البلاد، وكنت قد زرته مؤخراً.

إنّ هذا الاستطراد - أي وصف دجيل - في آخر الأمر له علاقة بموضوعي، لا لشيء إلا لأنّ رحلتي تبدأ عند حدود المنطقة موضوع البحث تقريباً.

منطقة دجيل معروفة باسم «الجزيرة»[١] لأنها محصورة بين دجلة من الشرق وأحد الجداول الذي يتفرع من هذا النهر - أي دجلة - على بعد سبعة فراسخ ونصف فوق بغداد، وبعد أن يجري مسافة تسعة فراسخ أو نحو ذلك يتلاشى في هور. والهور هو المستنقع الذي تنقلب فيه مياه نهر الفرات عند ارتفاعها.

هذا النهر ينقسم بدوره إلى جداول عديدة، أهمها جدول بسيّه[٢] Besse (؟) وهذه الجداول تسقي الأرض بمياهها الغزيرة وتعدّها بحيث تصبح مربحة بالتأكيد إذا ما تكاتفت طاقات العمل اليومي من قبل أبناء القبائل الحضرية الفلاحية.

هؤلاء الناس يزرعون الحبوب على اختلاف أنواعها والخضروات:

---

(١) سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات، وهما يقبلان من بلاد الروم وينحطان متسامتين حتى يلتقيا قرب البصرة. ياقوت: معجم البلدان ٢: ٧٢.

(٢) ايكون نهر بشير؟ انظر: سوسة: ري سامراء، ص ٤٩٩.

كالحنطة والشعير والدخن والسمسم والعدس والحمص وما إلى ذلك، إضافة إلى البطيخ والرقي.

إنّ العرب الذين يعملون هنا ينتمون إلى القبائل التالية: قبيلة بني سعيد، المشاهدة، الجبور وآخرين. وكلهم يخضعون لضابط إقطاعي ضَمَنَ المنطقة كلها من باشا بغداد على عهدته لقاء مبلغ من المال يؤديه سنويًّا للوالي المذكور مقداره خمسة وأربعون ألف قرش. والمتعهد أو الضامن الحالي هو من أصدقائي القدماء ويسكن في **بلد**[1] وهي بليدة رئيسة في الجزيرة، التي تقع على دجيل بالذات؛ على بعد ثلاثة فراسخ من مصدره. إنها مشهورة بإنتاجها أجود أنواع العنب، والرمان الجميل اللذيذ. ويهتمون أيضاً بإنتاج التمور والتفاح وسائر أنواع الفاكهة اللذيذة الطعم التي تجمع بسلالٍ مصنوعة من أعواد الصفصاف فترسل إلى أسواق بغداد.

وإليك أسماء أهم الأماكن الواقعة على ضفاف الجدول:

أولاً: حربى[2] وتقع على بعد نصف فرسخ إلى الشمال من بلد. إنها مدينة خربة كانت قد شيدت في عهد الخلفاء، ومما يشاهد فيها إلى اليوم منارة وبعض البيوت غير المأهولة.

إلى الشمال من بلد يوجد جسر قديم[3] مشيد بالحجارة[4] بقيت منه

(١) ياقوت: معجم البلدان ١: ٧١٨ ولا تزال بلد قائمة وعامرة.

(٢) قال عنها ياقوت: «بليدة في أقصى دجيل بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة». معجم البلدان ٢: ٢٣٥.

(٣) هي قنطرة حربى التي شيدها الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٩ هـ = ١٢٣٢ م. انظر: الفخري (ط. دار صادر، بيروت ص ٣٣٠) وعليها كتابة نقلها ونشرها علماء أفاضل منهم: سوسة: ري سامراء، ص ٤٩٥ - ٤٩٦؛ لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٧٣.

(٤) الجسر مشيد بالآجر المفخور، سوسة: ري سامراء، ص ٤٩٥.

قنطرتان فقط وقد نالهما الخراب بعض الشيء[1].

ثانياً: إلى الجنوب من هذا المكان بمسافة قليلة نجد قرية تدعى «الحمرات» El-Hamarat وهي مأهولة بالسكان وتحيط بها البساتين.

وعلى بعد فرسخ ونصف من «الحمرات» تقع قرية أقل أهمية منها تسمى بابلين (باب العين؟) Babeline ومن هناك لمسافة ثلاثة أرباع الفرسخ نصل إلى «الوزون» El-wezoun وتليها بلدة كبيرة تدعى «سميكة» وهي واقعة عند منحنى النهر. وتقدم بلدة سميكة للزائر منظراً جذاباً حقًّا لأنّ بيوتها مشيدة بطريقة جميلة عند حافات المياه وتفصلها أشجار مثمرة.

ومن سميكة (كتبها: سميجة) وهي أبعد نقطة لنهر دجلة. وتكون هناك المسافة إلى النهر نحو ثلاثة فراسخ وربع الفرسخ في الخط المستقيم.

وإذا أردنا أن نبحث عن مواقع أخرى مهمة في عمق المنطقة، فهناك وانه[2]، جف علي[3]، شيخ جميل وأخيراً شيخ محمد[4].

فالموقع الأول يشير إلى قرية مأهولة بعدد قليل من السكان على بعد ربع فرسخ من الجدول أو فرسخين عن سميكة المار ذكرها. أما الأسماء

(١) مصطفى جواد وأحمد سوسة: دليل خارطة بغداد، ص ١٨٤ - ١٨٥؛ سوسة: ري سامراء، ص ٤٩٦ - ٤٩٧.

(٢) وهي اوانا وصفها ياقوت: معجم البلدان ١: ٣٩٥؛ وابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ١: ١٠٠، وأطلال هذه البليدة ما زالت تعرف باسم «وانه» وهو تصحيف للاسم القديم: اوانا.

(٣) ويقع عند الموضع المسمى محليًّا تل شنيت أو تل الصخر. الشابشتي: الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢، ص ٩٧.

(٤) هو السيد محمد بن الإمام علي الهادي، يجله الناس ويطلقون عليه لقب «سبع الدجيل». علي الوردي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص ٢٤٤.

الأخرى التي نوهنا بها فهي ليست سوى أضرحة لأولياء المسلمين، ولكل ضريح حارس لأنّ الناس يقصدون هذه الأضرحة للزيارة. وهؤلاء الناس البسطاء يكرمون بنوع خاص أثر طبع يد بشرية ولهذا سمي الموضع «كف علي» فهو ينسب إلى قريب النبي ﷺ. وإذا تحولنا إلى ضفة دجلة فسنجد أولاً: «العلث»[1] على بعد فرسخ إلى الجنوب من منبع دجيل. والعلث هي قرية زاهرة.

ومن العلث مع مجرى النهر نمر بتل كوش (؟) Tel goche ولا تقدم لنا غير هيكل مدينة قديمة لا أكثر، وموقعها على بعد فرسخين من بغداد. ونلتقي ونحن في الطريق بالناس وبأماكن سكناهم المتنوعة من خيام وأكواخ، وينتمي هؤلاء الناس إلى عرب الحسيس El-Husseis وبني سعيد (؟) Soccedies الذين تحدثت عنهم.

إني أخمن محيط جزيرة دجيل بنحو أربعة عشر فرسخاً تقريباً. يحدها من الجنوب الهور وقناة المسعودي المتكونة من مستنقعات واسعة تصب في دجلة إلى الجنوب من بغداد. إنها والحق يقال أرض خصبة جدًّا، وتكثر فيها الطرائد. ولو أعطيت الفرصة لسكانها المظلومين لكي يهتموا بها لأصبحت كثيرة العطاء.

ملاحظات حول سكان البادية

نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، وإذ كان المناخ رائعاً، أردت التجول حول البحيرة القريبة بينما حاول الخدم صيد السمك فيها فلم يفلحوا إلا بصيد سلحفاة لا غير!

---

(١) موقعها على نحو سبعة كيلومترات من شمال غربي «بلد» الحالية. ذكرها ياقوت: معجم البلدان ٣: ٧١١؛ الشابشتي: الديارات، ص ٩٦؛ أحمد سوسة: ري سامراء، ص ١٨٣ - ١٨٤.

في هذه الأثناء وصلت إلى موقعنا عائلة مكونة من رجلين وامرأة وطفل رضيع، وثلاثة صبيان أقوياء، كان أحدهم راكباً على جمل، أما الآخرون فيسيرون على الأقدام وهم يمسكون بزمام حيواناتهم المحملة بالأمتعة الخاصة وهي: طحين الشعير والتمر. فتوقفوا عند الماء وملأوا قربهم من ماء البحيرة الذي كان طعمه غير مقبول، لكنهم استطابوه على ما أكدوا أمامي.

وقد لهوت معهم إذ تبادلنا أطراف الحديث، بينما انكبت المرأة لإعداد العجين من أجل صنع الخبز. وراح الصبيان يجمعون الحطب لإشعال النار من أجل إعداد الخبز.

قالوا لي أنهم قادمون من جهات الفرات وهم في طريقهم للالتحاق بجماعة من عرب الجبور المقيمين في الهور فهم حلفاؤهم.

وفي أثناء الكلام سألتهم إن كانوا مسرورين بنصيبهم في الحياة، فأجابني أحدهم: ولِمَ لا؟ فإنّ العناية الإلهية وهبتنا السيطرة على البادية العامرة بالعشب، المليئة بأنواع الحيوانات التي نجد فيها ما يكفينا لطعامنا.

ثم أضاف: عندنا أكثر من مئة وخمسين رأس غنم، وخمسين جملاً، وتربطنا ببعضنا أواصر الدم والأخوة، ونتمتع بالصحة والعافية، ونستمتع بالاستقلالية فلا أحد يعكر صفو حياتنا. فماذا نطلب أكثر من ذلك في هذه الدنيا التي دخلناها من باب وسنخرج منها من باب آخر بعد أن نمضي سني حيتنا! . . .

أذهلتني طريقة تفكيرهم هذه، ففيها الكثير من الصحة لأنها صدرت من راع بسيط لا يدل مظهره على عمق الحكمة في داخله.

علينا أن لا نخلط بين العرب سكان الأرياف أي النازلين حول المدن كالذين تكلمت عليهم آنفاً، مع البدو الذين يسكنون وسط الصحراء

المحرومين من كل وسائل العيش والتحضر فيضطرون إلى النهب لا بل وقتل أمثالهم أحياناً من أجل البقاء.

● وصف امرأة عربية

وبينما كانت هذه الأفكار تدور في داخلي، كنت أمعن النظر في المرأة التي بعد أن انتهت من إعداد الخبز، احتضنت طفلها واتكأت على جسم جمل متربع وشرعت بإرضاع الطفل. كانت - على ما يبدو لي - في الثلاثين من عمرها، ملامح وجهها الملون بالسمرة يعطيها منظراً قاسياً. شفتاها مصبوغتان بلون أزرق. وعلى خديها وحنكها ويديها بقع من اللون نفسه[١] وفي وسط أنفها حلقة واسعة من الذهب تنتهي بحبات متحركة من المرجان تتدلى أمام وجهها[٢] وكانت يداها وقدماها مجملتين بحلقات مصنوعة من مختلف المواد فهذه زينتها[٣] أما لبسها فهو عبارة عن فستان فضفاض من الكتان، لونه أزرق غامق، وتشد وسطها بحزام من القنب، بينما تلف رأسها بقطعة قماش أو كوفية خضراء، وعلى كتفيها معطف خشن.

من العادات المنتشرة بين النساء العربيات هي أن يرسمن باللون الأزرق الغامق الوجه والصدر واليدين[٤] وتستعمل النساء في كل من تركيا وإيران الكحل لتلوين عيونهن وحواجبهن. كذلك يستعملن الحناء

---

(١) أراه يتكلم عن الوشم المنتشر في بلادنا خاصة بين النساء البدويات والريفيات. انظر عطا رفعت: الوشم، مجلة التراث الشعبي ١(١٩٧٠) العدد ١٢، ص ٦٦ - ٧٣؛ ضياء العزاوي: الوشم، المجلة نفسها ٢(١٩٧٠) العدد ٤، ص ٧١ - ٩٦؛ ليث الخفاف: وشوم الحنك، المجلة نفسها ١٠(١٩٧٩) العددان ٣ - ٤ ، ص ٧٢ - ٧٩.

(٢) هي الخزامة أو وردة الخشم أي الأنف.

(٣) أراه يشير إلى الأساور والحجول أي الخلاخل.

(٤) عزيز جاسم الحجية: بغداديات ٢ : ١٨.

لتلوين الأيدي والأرجل باللون الأحمر. وأخيراً فهن يستعملن الوسنة (وهي شجرة أيضاً) لشعر الرأس إذ تضفي عليه سواداً ولمعاناً[1].

خرائد الكرخ

مذكرات الطريق في ٢٦ تشرين الاول في موقع الهبنة

انتهزت طيبة المناخ في هذا الصباح لأقوم بجولة من جهة النهر - فسرت أكثر من ربع ساعة بمحاذاة سد ترابي يبعد عن خيمتنا نحو ستين خطوة، ويمتد باتجاه الشمال الشرقي. وكان سليمان باشا قد أمر بإقامته من أجل أن يحمي الهبنة من فيضان الهور الذي يتكون - كما أسلفنا - من جراء فيضان الفرات.

ثم تجولت بين خرائب الكرخ القديمة التي تشاهد بين الكاظم وبغداد، على مسافة قليلة من نهر دجلة. هذه المنطقة كانت ضاحية كبيرة لعاصمة الخلفاء، عامرة بالسكان ومنهم النصارى[2]، وكان موقعها جميلاً جدًّا بحيث أنّ الشاعر الخاقاني Khakhani يصفها وصفاً ممتعاً في نص رحلته إلى العراقين التي كتبها شعراً. لكن هذا الموضع لم يعد اليوم غير أكمات من تراب يذهب إليه الأعراب فيحفرون بحثاً عن أشياء مفيدة من أدوات منزلية وأثاث ومواد أخرى، لا بل يعثرون أحياناً على مداليات (نقود) مكتوب عليها بالخط الكوفي.

---

(١) قال المؤلف الوسنة، ويقال عادة الوسمة وهو نبات تسحن أوراقه وتخلط مع الحناء لصبغ شيب الشعر، الحجية: بغداديات ٢: ١٢؛ وأما عن الكحل واستعمالاته فانظر الحجية: بغداديات ١: ٢٦.

(٢) كان في الجانب الغربي من بغداد في العهد العباسي كنائس عديدة، منها بيعة درتا وبيعة دار الروم وبيعة السيدة في العقبة وأخرى عند قنطرة بني زريق وبيعة مار توما في المحول وغيرها، انظر كتابنا: كنائس بغداد وديارتها، ص ٨٠ وما بعدها.

أتذكر أنهم استخرجوا قبل خمسة عشر عاماً جرّة كانت تحتوي على دنانير قديمة، وإذ كانت ذهبية فإنّ الباشا وضع يده عليها عندما بلغه خبر اكتشافها تاركاً للمنقبين الجرة الفارغة لا أكثر!

وقام الباشا نفسه بتسوير الكرخية Karchiatra من الآجر المستخرج من هذه الخرائب، وهذه هي إحدى محال بغداد وتمتد على ضفة دجلة اليمنى. إذ كانت سابقاً مفتوحة من كل جهاتها بحيث كانت تسهل عمل المهربين[1].

بعد عودتي من الجولة بقليل، قدم لرؤيتي عدد غير قليل من الأصدقاء؛ وإذ كان أحدهم يعرف مدى حبي وإعجابي بالمخطوطات، فقد حمل معه كيساً مليئاً بها، كان معظمها من الكتيبات العادية وهي بحالة رثة وممزقة، لكني وجدت بينها Mernewyel - Weledy[2] فاشتريته في الحال، لأني كنت أعرف هذا الكتاب من قبل بالإسم فقط.

يتطرق هذا الكتاب المكتوب شعراً إلى النقاط الأساسية للتعليم الصوفي. وقد ألقيت عليه نظرة سريعة ثم قرأت بعض فقراته فإذا بها جميلة المعاني عميقة الأخلاق.

الذي أعرفه عن هذه الفئة من المتصوفين، أنها في نظر المسلمين المتدينين ليست سوى فئة ضالة وهي أقرب إلى الجنون.

هؤلاء هم فلاسفة الشرق، انطلقوا من بلاد الفرس، ويكونون الآن جماعة متزهدة ومتفرغة للتأمل في الطبيعة والتعمق في أصول الدين. لهم

---

(١) اتخذ الوزير سليمان باشا الكبير (١٧٧٩ - ١٨٠٢) بجانب الكرخ سوراً وخندقاً، العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٦: ١٤٧؛ وشيد عدة أبراج فيه جهزت بالمدافع. سوسة: فيضانات بغداد، ص ٣٦٥.

(٢) أرى أنه ينوه بأحد تفاسير المثنوي وقد كتبه المرنوي. ولم أجد ذكراً له في كشف الظنون ٢: ١٥٨٧ - ١٥٨٩.

قابلية عالية في الجدل الفقهي في أمور الدين، إذ يدعون بأنهم ملتزمون بأطهر صوره، وما حياتهم المثالية وأعمالهم الصالحة إلا خير برهان على صفاء معتقدهم.

إنهم بالتأكيد يحترمون القرآن الكريم الذي أنزله الرحمن على البشر، لكن طريقتهم في تفسيره تختلف كل الاختلاف عن طريقة المفسرين المعروفين. إنهم يقبلون تقاليد المفسرين الأسيويين (كذا!)[١] ويضيفون إليها ما يرتأون من أفكار خاصة بحيث يكونون في آخر الأمر خليطاً متكاملاً من تعاليم غريبة ترتاح فيها نفوسهم وتتيه فيها كما يطيب لهم.

إنّ أهم مبدأ عندهم هو في إضفاء الروحانية على كل شيء، ورؤية كل شيء في الله، وإسناد كل ما يحدث للبشر من خير أو شر إلى السماء؛ والتصور بأنّ النفس البشرية ما هي إلا امتداد للجوهر الإلهي، وهي بقوة امتلائها من فكرة خالقها ينتهي بها الأمر إلى أن تتحد وتتلاشى في ذاته فتصبح واحداً معه.

لنتذكر بأنّ معظم المتصوفة يعتقدون بالحلول في فترة ما بعد الموت[٢] ويرفضون لذلك فكرة العقاب الأبدي، رغم أنّ هذا القول لا ينسجم مع أحكام القرآن الكريم.

من كل ما ذكرناه باختصار عن طريقة المتصوفة، نستنتج بأنها طريقة غير واضحة المعالم لا بل مليئة بالمتناقضات، وبأمور غير معقولة. وإذ تعمقنا فيها قليلاً فسنكتشف بسهولة أنها خليط غريب من تعاليم البدع القديمة: كالمشائية مثلاً أو الانتقائية وغير ذلك[٣] وفي هذا الخليط يسيطر الفكر الانتقائي.

---

(١) تعبير غريب لم أفهم إلى من يشير المؤلف.

(٢) أوليري، دي لاسي: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ص ٢٠٢.

(٣) طريقتان في التفكير والتعليم عرفتا في المدرسة اليونانية القديمة، تنسب الأولى =

إنّ كتبهم الفلسفية هي أيضاً غامضة، وتتحمل أكثر من تفسير، ولا تقدم إلا أفكاراً عامة غريبة، أو صوراً بعضها واطئة ودنيئة، وبعضها الآخر صبيانية ومتكلفة.

يرجع تاريخ الصوفية إلى زمن دخول العرب إلى بلاد فارس، لا بل إلى صدر الإسلام، إذ يفهم بكلمة «صوفي» كل إنسان صاحب طريقة يحارب من خلالها المبادئ القائمة دينية كانت أم أخلاقية ليتبع - مبادئ - أخرى معاكسة لها كليًّا.

وقد لعبت هذه الحركة دوراً مهمًّا في القرون الماضية، كما عانت الكثير وتحملت الاضطهادات، فقد اضطهدها العوام وأعلن عليها رجال الدين الحرب بلا هوادة حسداً منهم أو تعصباً.

وفي الفترة التي تخلصت إيران من مآسيها وأخذت تعيش أجواء أكثر انفتاحاً، فقد عاد المتصوفة للظهور وبدأوا ينشرون بنجاح تعاليمهم الخاصة بهم. ففي مجرى القرن السابع الهجري ظهر على مسرح الأحداث الشيخ المشهور **جلال الدين الرومي** أبو اسماعيل واعظ الجامع[1] وسندي وحافر وولدي وغيرهم، وكلهم مؤلفون وشعراء مشهورون استطاعوا من خلال عملهم الواسع واجتهادهم العالي وفصاحتهم المقنعة وضع أسس تعليمهم وتقويته ونشره في بلدان مختلفة كالهند وتركيا.

= Peripatisme إلى أرسطو الذي كان يعلم تلاميذه ماشياً، أما الأخرى Eclectique فتنسب إلى الذين يسمعون ويقرأون الكثير وينتقون ما يرتاحون إليه.

(١) جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ = ١٢٠٧ - ١٢٧٣ م) ولد في بلخ ودفن في قونية، شاعر صوفي يعتبر مؤسس الطريقة المولوية. من مؤلفاته «المثنوي». انظر: كشف الظنون ١٥٨٧؛ العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٤ : ١٣٠؛ الزركلي: الأعلام ٧: ٢٥٨.

ونشبت في تلك الفترات ثورات في إيران واستمرت مدة طويلة بحيث أنها خلقت جوًّا من البلبلة والفوضى مما أوقف مسيرة العلم والتجارة، واضطرب حبل الأمن، وتعكر النظام العام وهو ضروري جدًّا لبقائهم واستمرار نشاطهم.

عندما توالت النكبات في البلاد، فإنّ جماعة المتصوفة فقدت وسائل عيشها وتوقف نشاطها، لا بل تهاوت وتفرق أعضاؤها بحيث لم يبق أمل في قيامها. واليوم فإنّ هذه الفئة هي موضوع سخرية الناس بحيث صار اسمها يطلق على ناقصي العقل وعلى الجهلة أو على المتعصبين والمتظاهرين بالورع والعلم. لكني شخصيًّا التقيت عند سفري إلى طهران ببعض الدراويش المتصوفين، وتبادلت أطراف الحديث معهم فرأيتهم على شيء من الثقافة، وكانوا يعيشون حياة منعزلة يلفها الغموض. كانوا على ما يبدو لي بقايا بناء واسع عظيم منها منذ زمن بعيد. كما التقيت ببعض الدراويش في الأقاليم التركية المختلفة.

إنّ أهم كتبهم هو «**المثنوي**» لجلال الدين الرومي الشهير الذي سبق ذكره، والذي كان قد أسس تكية في قونية[1] وقد توفي هناك فأقاموا له ضريحاً فخماً هو محط أنظار مريديه وإكرامهم أولئك الذين يجوبون البلدان بزي الدراويش المعروف.

إنّ هذا الزي الغريب، إضافة إلى حالة البطالة والتسكع التي يعيشون فيها، لا بل الجريمة، جعل الناس ينظرون إليهم اليوم كأشخاص متشردين أفاقين[2]. وإذا ما اجتمع أفراد منهم في مكان ما فإنّ جلّ اهتمامهم ينصب على ممارسة «السماك» أي الرقص الديني تحت قيادة رئيس يختارونه لكل

---

(١) معجم البلدان ٤: ٢٠٤.

(٢) أحمد حامد الصراف «الدرويش» مجلة لغة العرب ٦ (١٩٢٨) ص ٨١ - ٩١.

لقاء[١]، فتراهم عندئذ يقومون بحركات غريبة لا بل مخيفة ويترنحون كالمجانين مرددين على مدى ساعات طويلة على إيقاع الطبل اسم الجلالة: «الله... الله...» ثم يلقون بأنفسهم فجأة على الأرض متهالكين ويروحون في نوم عميق. ويطلقون على ذلك اسم النشوة الأسمى، إنه انخطاف لذيذ واستغراق في الروحيات وتلاشي القوة الكلي.



مقبرة الشيخ معروف - بغداد

(١) قال في النص السماك، وأظنه يريد «السماع» فهي غلطة مطبعية. انظر: عادل كامل الألوسي: التصوف والموسيقى، مجلة آفاق عربية ٦ (١٩٨١) العدد ٥، ص ١٢٧؛ ولعله من سمك الشيء سموكاً ارتفع، والسامك العالي المرتفع. ابن منظور: لسان العرب، المجلد ١٠، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ مادة: سمك.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مشروع يسعى الإنكليز حاليًا إلى تحقيقه



● *وهو إعادة الأسرة الزندية إلى العرش* ●

● *الأفراد الباقون من هذه الأسرة على قيد الحياة* ●

● *(مختصر من مذكرات الطريق في ٢٨ تشرين الأول)* ●

***

عند عودتي من الجولة وجدت تحت خيمتي فرخان الفارسي Verkhan: يا للمفاجأة، أحقًّا فرخان بذاته هنا في وسط القفر؟!... لقد ظننت للوهلة الأولى أنه هبط عليّ من السماء! فسلمني رسالة خاصة من مهدي خان كلهور من ورمنشاه الذي أرسل إلى بغداد لحضور تشييع جنازة أحد أقربائه الذي كان جثمانه قد نقل إلى «الكاظم» على عادة القزلباشية كي يدفن في مقبرة هذا المكان المقدس.

كان هذا الشخص - أي فرخان - حسن الاطلاع على الشؤون الإيرانية، وكان صديقاً للفرنسيين، وقد بحث عني في بغداد، وما إن علم من أصحابي بأني مخيم في هذا المكان حتى هرع - على حد قوله - بالمجيء لرؤيتي. وقد ألقيت عليه أسئلة عديدة تخص بلاده، وأرى من الفائدة بمكان أن أكتب هنا بعض أقواله إذ أراها تستحق الذكر.

أخبرني صاحبي:

أنّ الإنكليز يشعرون بالمهانة من الرفض الذي أبداه صاحب السمو فتح علي شاه لسفيرهم ملكولم، ولذا فهم يفكرون برفع هذه الوصمة بهجوم سريع يشنونه على ولاياته[1]، وهم لا يخفون مخططهم بإعادة الأسرة الزندية على العرش الذي تهاوى منذ زمن من جراء ضربات القاجار...[2]

[في الصفحات الخمس التالية يتحدث الرحالة عن الأسرة الزندية وهو أمر لا يهم إلّا القارئ المتخصص].

كلمة عن تل نمرود

(مختصر من مذكرات الطريق في ٢٩ تشرين الأول ١٨٠٨)

رحلنا من الهبنة في مطلع النهار وسرنا باتجاه تل نمرود (نمرود تابسي) وهو الموضع الذي أشير علينا أن نخيم فيه. وكان علينا أن نحيد قليلاً عن الطريق لكي نتجنب جيرة غير مرغوبة من البعران. فأسرعنا الخطى وسبقنا القافلة بحيث أننا بعد ثلاث ساعات ونصف من سير حثيث باتجاه الغرب وصلنا إلى أقدام هذه الآثار واتخذنا لنا موقعاً في ظل الأثر الذي كان يغطي عدة فدادين من الأرض.

ما إن ألقيت نظرة أولى على الأثر حتى فكرت بأنه بناء أقامه السكان الأقدمون في هذا المكان من أجل تخليد مناسبة مهمة من المناسبات.

للأثر شكل الكمثري، تحيط به أنقاض تساقطت منه مع مرور الزمن باستطاعتي تخمين ارتفاعه بنحو ١٢٠ قدماً، وقطره بأربعين.

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت ١٩٧٩، ص ٦٥٧.

(٢) النسبة إلى قبيلة زند في جنوب إيران، انظر: بروكلمان المرجع نفسه، ص ٥٢٨.

إنّ المواد المستعملة في بنائه هي الآجر المجفف في الشمس والقصب الذي يبدو للنظر أنه جديد وطري. بين كل ستة صفوف من الآجر نجد طبقة من القصب المذكور أو البواري بثخن أربع أصابع أو خمس، مع العلم أنّ عدد صفوف الآجر يبلغ ٢٤٠ صفًّا مميزاً، ولا أثر للملاط في هذا البناء كما زعم بعض الرحالين الذين تنقصهم دقة الملاحظة.



تلّة نمرود (عن تخطيط أعده الرحالة روسو)

لا أثر في هذا البناء لأية كتابة ترشدنا إلى زمن تشييده، أو اسم الشعب الذي أقامه، أو اسم الملك الذي نهض بهذا العمل.

هناك فتحة مربعة الشكل في وسط البناء باتجاه الغرب، من الصعب الوصول إليها من غير سلالم. وما عدا هذه الفتحة لم أستطع أن أجد شيئاً آخر ملفتاً للنظر، رغم أني طفت بالبناء أكثر من مرة فاحصاً ومدققاً إياه من أسفله إلى أعلاه. كل ما لاحظته وجود حجر عميق عند أسفله هو في ظني وكر من عمل بنات آوى لا أكثر!

إني أسأل نفسي: كيف يمكن أن يكون هذا البرج - إن كان برجاً حقًّا - وهو بلا باب ولا درج؟ إني أتصور أنهم وضعوا له درجاً حلزونيًّا من الخارج[1] يصعد إلى قمته. وإذ كان الدرج معرضاً لعوامل الطبيعة فقد أصابه الخراب قبل كل شيء آخر في البناء.

كثيرون رأوا برج نمرود هذا ووصفوه. فمنهم من تبنى التقليد المحلي الذي يردده الأعراب بأنه بقايا برج بابل الشهير، وهم بذلك على خطأ، فإنه على خلاف ما ورد في النصوص لم يدخل في بنائه أي نوع من الملاط، كما إنّ الآجر المستعمل في تشييده لا تزيد مساحة الواحدة منه على أكثر من قدم مربعة. أما سمكها فيبلغ نحو نصف قدم. كما أنّ برج بابل كان قد شيد في سهل شنعار وهو إلى الجنوب من بابل[2] بينما يقع هذا الأثر موضوع بحثنا على بعد عشرين كيلومتراً إلى الشمال من الحلة، حيث تقوم إلى اليوم بقايا عاصمة سميراميس. إنه في رأيي مرقد شخص مهم لعب دوراً في التاريخ قد يكون نمرود نفسه إذ أنّ اسمه لا يزال يتردد على الألسن. أو هو أحد أبراج سور ميدية الشهير الذي نوه به زينيفون.

انطلاقاً من هذا التخمين، بإمكاني أن أشير إلى سلسلة من الآكام المكونة من التراب والآجر والقصب يمكن أن تشاهد قائمة في هذه المنطقة على امتداد نهر دجلة باتجاه الغراف ويطلق عليها اسم **«عقرقوف»**[3].

بقرب هذا المكان وعلى أرض كلسية تشاهد نحو خمسين كوخاً تعود إلى عرب بني زيد وهم يملكون بعض الماشية ويهتمون باستخراج الكلس

---

(١) يستمد الرحالة الصورة من ملوية سامراء.

(٢) سفر التكوين ١١: ٢ وما يليها.

(٣) موضع عرف في التاريخ باسم دور كوريكالزو نسبة إلى الملك الذي شيده وجعله عاصمة الكيشيين، ولا يزال الأثر قائماً وقد جرت عليه صيانة أكثر من مرة.

من تلك الأرض وإرساله إلى بغداد فيربحون من عملهم هذا بعض المال. لكن حالتهم يرثى لها، ومياه آبارهم ثقيلة وغير صحية.

بعد أن انتظرنا القافلة نحو ثلاث ساعات ثقيلة من غير أن يظهر لها أي أثر، بدأنا نفقد الصبر إذ لم نجد سبباً مقنعاً لهذا التأخير. ولم يكن معنا زاد ولا ماء، ونحن محاطون بأناس تظهر على ملامحهم سوء النية إذ كنا نلاحظهم يرسلون بين فينة وأخرى أشخاصاً يراقبون حالتنا وتحركاتنا، لذلك ساورتنا الشكوك وأصبحت حالتنا مثيرة للقلق. عندئذ أرسلت رجلين من مرافقينا ليجسّا الأمور فذهبا في الحال وما فتئا أن عادا مع أخي منصور دليلنا ورجلين مع العكيل فأخبرونا بأنّ القافلة قد غيرت مسارها فذهبت وحطت الرحال على بعد فرسخين من موقع «نمرود تابسي»، فلما بلغنا ذلك أسرعنا إلى امتطاء جيادنا لنلحق بهم. وأخيراً وصلنا إلى القافلة قبل غروب الشمس وقد أنهكنا المسير وعضنا الجوع. وبعد أن استرجعت قوتي وتناولت وجبة دسمة من البلاو الطيب[1] وقدحاً من العرق المستقطر من التمر، وقليلاً من القهوة الحارة مصحوبة بأنفاس من الغليون، وبعد استراحة نصف ساعة أو نحو ذلك إذ استلقيت على سجادتي ثم أتممت كتابة هذه المذكرات.

معلومات عن الهور

يشير هذا الإسم إلى المكان الذي نزلنا فيه، وسنخيم فيه أسبوعاً في الأقل. وهو عبارة عن أرض فسيحة بائرة، تكثر فيها الحفر والشقوق، وهي يابسة الأديم ويكثر فيها القصب والبردي، كما فيها سبع آبار أو ثمان ماؤها كريه الرائحة ومليء بالرمل.

---

(١) البلاو (= تركية) تعني الرز المطبوخ.

إذا ألقيت نظرة في الأفق البعيد سترى خيام الأعراب من بني زيد. أما المنظر المنفتح أمامنا مباشرة فهو مكون من الأحمال الواصلة إلى هنا وقد أنزلت ووضعت هنا وهناك بلا ترتيب ويبلغ عددها نحو المائة. ويقوم على حراستها ثلاثون أو أربعون من الأعراب الأشداء، كما نرى أمامنا أيضاً جمال القافلة وهي كثيرة، بعضها قائمة وأخرى باركة وهي تجتر كعادتها. ومن بعيد ترى جمالاً قادمة من بغداد تسير بهدوء خلف حاديها.

نصبت خيامنا وتوزعت أمتعتنا، فيا له من منظر جميل يمتد أمام أعيننا في هذا المخيم في عقرقوف والهور.

أما الهور الذي نوهت به أكثر من مرة فهو مستنقع واسع جدًّا، لكنه الآن جاف. فإنّ مياه الفرات حفرت الأرض في موسم الفيضان وصبت فيها من جهات عديدة بجداول طبيعية، وأهم هذه الجداول يطلق عليه «الصقلاوي» وهو أشبه ما يكون بنهر حقيقي، وبدوره يقسم إلى جداول أصغر منه كالسفيري والنازوز والعوينات وما إلى ذلك.

يقع الهور إلى الغرب من بغداد، ويمتد مسافة ١٢ فرسخاً طولاً، وخمسة فراسخ عرضاً، وينتهي قرب الكاظم بمئات الأقدام لا أكثر. ويسكن عند حافاته الخصبة عدد من العرب يزرعون هناك: الرز والشعير والحنطة والذرة وغيرها.

يبدأ الهور بالامتلاء اعتباراً من شهر آذار [مارس] فهو بدء موسم فيضان الفرات، ولا يجف إلا في نهاية شهر آب [أوغسطس] ففي ذلك الحين يعود النهر إلى مجراه ضمن حدوده الطبيعية.

ويحدث في بعض السنين أنّ الفيضان يكون عاتياً، فتزداد المياه في الهور ازدياداً هائلاً وتمتد بسرعة عالية، وتذهب فتصب في حوض نهر دجلة، وهكذا يتصل نهر الفرات بأخيه [في النص: بمنافسه] نهر دجلة، وإذا بتلك المسافة الشاسعة بين النهرين تنغمر بالمياه وتتحول إلى بحر

متلاطم واسع الأرجاء بحيث تمخر فيه القوارب النازلة من هيت أو من عنه وهي محملة بالذخيرة.

إنّ واردات الهور كبيرة جدًّا، فإلى جانب محاصيل الأرض التي نوهنا بها من قبل، فالهور يزود السكان بأحسن أنواع الأسماك، وهي تلتقط بسهولة نظراً لضحالة المياه إذ لا يصل مستواها أعلى من وسط قامة الإنسان، ولذلك ينزل الرجال إلى الهور وهم شبه عراة حاملين عصياً تنتهي بقطعة حديد[1] وبها يضربون السمك ويصيدونه بسهولة.

والعادة الجارية هنا، إنّ أحد شيوخ العرب يضمن الموقع بعقد لقاء مبلغ قدره خمسة عشر ألف غرشاً يؤديه إلى والي بغداد.

ويقدم الهور إلى جانب السمك، مجالاً واسعاً لصيد طيور الماء، والخنازير البرية وهي ليست وحشية بمعنى الكلمة لأنه لا يقترب منها أحد ولا يصطادها.

يتناول القوم هنا نباتاً يقال له «السعد»[2] وهي درنات واحدتها بحجم البندق، توجد في باطن الأرض على عمق نصف قدم، قشرتها سوداء سميكة، فيها نتوءات فطرية ولحمية. لبها أبيض له رائحة مقبولة ومذاق حريف.

---

(١) أظنه يشير إلى آلة الصيد المنتشرة في جنوب العراق خاصة في الأهوار التي تسمى الفالة.

(٢) انظر عن السعد وفوائده: الشيخ داوود الأنطاكي: تذكره داوود، ط. مكتبة الثقافة الدينية - بور سعيد ٢٠٠٠؛ ١: ٢١٣ - ٢١٤ يتخذ كعلاج لسوء الهضم مثلاً أو لاضفاء رائحة مقبولة على الفم لا أكثر.

النظام في القوافل

(ملحق من يوميات الطرق في ٣٠ تشرين الأول ١٨٠٨)

نحو الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم إذا «بصوغين» يصلان إلى مخيمنا، والعرب يطلقون هذه التسمية على الفصيل المتأخر عن القافلة، ويبلغ عددهم أربعين حملاً من البضائع يقودهم أربعون رجلاً من رجال العكيل. هؤلاء كانوا قد انطلقوا من الهبنة مع شروق الشمس.

خرجت أتجول حول بالات البضائع المرتبة على الأرض بشكل نصف دائري، ومقسمة إلى مجموعات يقال لها طايس(؟) Taye's، وكل مجموعة يرأسها جمّال له تحت إمرته نحو اثني عشر رجلاً من هؤلاء الأعراب (أي العكيل) واجبهم المحافظة على حيوانات القافلة والعناية بها وبأحمالها.

إنّ هؤلاء الرجال المسؤولين عن الأحمال يجتمعون من وقت إلى آخر فيقال لاجتماعهم هذا «بركاني» (؟) وفي مثل هذا الاجتماع يتخذون قرار السير ويستعدون له فيسيرون القوافل عبر البوادي، أكانت البادية الصغيرة أي بادية الشام أو «الشامية»، أو البادية الكبرى أي صحراء العرب أو الجزيرة أي ما بين النهرين، وأظن أني سبق أن أشرت بأنّ العكيل أو العقيليين هم وحدهم لهم امتياز قيادة هذه القوافل.

إنّ عدد البنادق التي ترافق القوافل تقدر عادة بالنسبة إلى أحمالها أي بضائعها. ويستخدمون عادة حامل بندقية يقال له صكبان[1] لكل حمل من القماش، وآخر لكل حملين من البضائع الثقيلة مثل السكر والقهوة والفلفل وما إلى ذلك. أما كلفة النقل فتتراوح بين ثمانين إلى مائة

---

(١) كلمة فارسية تعني الهداف.

وعشرة قروش عن الحمل الواحد المكون من بالتين تزنان سوية نحو ٣٤ بطماناً أي ما يساوي ٥١٠ ليبرة فرنسية على اعتبار البطمان الواحد يساوي ١٥ ليبرة.

ولنعد الآن إلى العرب العقيليين، فأقول: إنهم شجعان حقًّا، وشجاعتهم معروفة عند الجميع حتى استحقوا بكل جدارة اسم **«أسود الصحراء»**. وبالنسبة إلى أمانتهم فلا غبار عليها في نظر الجميع، ولا مجال لإفسادهم، فما يودع عندهم فهو في مكان أمين لا خوف عليه، لأنهم يعتنون به ويدافعون عن أموال الآخرين كما لو كانت أموالهم الخاصة بالذات.

لهذا لا يتحدث القوم هنا عن قوافل نهبت إلا قليلاً، إنها قد تهاجم وفي بعض الحالات من قبل الوهابيين ومن قطاع طرق آخرين منتشرين في الصحراء. ولكن يحدث أحياناً للقوافل التي يسير في مقدمتها Sagas (؟) أن تهاجم فتسلب أموالها على حين غرّة.

إنّ هذه القوافل، على عكس القوافل الإيرانية، لا تسير بالليل أبداً، ليس بسبب صعوبة الرؤية لسبل الصحراء المطروقة، ولكن لأنّ الظلام يسهل عادة عمليات الهجوم والسطو على القافلة، مع العلم أنّ عرب العكيل يعرفون جيداً - عند الحاجة - السير في هدى النجوم، وإني أعتبرهم من هذه الزاوية أفضل الراصدين للطبيعة، فلقد رأيتهم مراراً يخبروننا مقدماً عن تغيير الأجواء بدقة عالية. إنهم يعرفون ساعات الليل استدلالاً من ظهور الكواكب وغيابها، وكذلك ساعات النهار من خلال استنتاجات مختلفة، وأكثرها استعمالاً إنهم يمسكون باليد اليمنى عوداً بين الإبهام والسبابة بشكل عمودي، بينما تكون الكف ممتدة أفقيًّا باتجاه السماء، فيقع ظل النبات على مفاصل الأصابع فيقدرون عدد الساعات التي مضت منذ شروق الشمس.

تسير القافلة بأكملها تحت قيادة شيخ واحد هو المسؤول عن إدارتها العامة، وهو يصدر التعليمات إلى الجمالين والسائسين السائرين خلف الأحمال. ويرجع إلى هؤلاء حق اختيار شيخ القافلة.

معظم هؤلاء الرجال، ومن ضمنهم شيخ القافلة بالطبع يمتطون الخيل، ويسيرون عادة في المقدمة من أجل استكشاف الأرض بالمراقبة من المرتفعات كي يكونوا على استعداد لأي هجوم غير متوقع.

يسير بعدهم البيرقدار أي حامل الراية (أو البيرق) وهو بعدهم مباشرة حاملاً البيرق مطويًّا على كتفه. لأنّ العلم لا يرفرف على السارية إلّا في الحالات الحرجة وذلك من أجل تنبيه حملة البنادق ليستعدوا للقتال والدفاع عن القافلة.

يتكون العلم من لونين هما الأحمر والأخضر، ويوضع كأمانة عند أكبر الرجال سنًّا، فيكون هذا الشخص محط احترام الناس. كما يجلب له بعض الفائدة المادية، فمن حقه تعيين أماكن النزول من أجل المبيت، وأن يرشد السقاة إلى موارد الماء في الفلاة ليستقوا الماء.

للقافلة أيضاً: جاويش ومؤذن وقهوجي[1]

مهمة الأول أي **الجاويش** إعلان القرارات التي يتخذها شيخ القافلة ومساعدوه بخصوص الرحيل أو التوقف في المحطات. فهو الذي يصدر إشارة الرحيل، ويسير بين المسافرين معلناً عن غرض ضائع أو عن شيء معروض للبيع، أو الحاجة إلى دواء للناس أو للجمال. كما يسهر على الالتزام بالحراسة بين الأعراب ويحاسب المقصرين فيقتص منهم.

أما **المؤذن** فهو المرشد الديني للقافلة، يرفع الآذان خمس مرات في اليوم كما تأمر الشريعة، ويتدخل أحياناً بين المسافرين لتهدئة النفوس

---

(١) ذكر الرحالة هذه المهن بلفظها العربي المتداول.

عندما تنشب بينهم مشاحنات؛ كما يمارس أحياناً أخرى مهمة الوسيط أو الدلال في المعاملات التي تتم فيما بينهم. وهو أخيراً يرشدهم بمثله الصالح وتوجيهه الحكيم.

أما **القهوجي** فإنه يعد القهوة ويوزعها في محطات التوقف، فإنّ هذا المشروب العطر والمنعش الذي يهتم به الشرقيون ويقدّرونه حق قدره أكثر منّا بكثير.

هؤلاء الأشخاص الثلاثة يعملون لقاء إكراميات يقدمها لهم شخصيات القافلة المرموقون الذين يتعهدون منذ انطلاق الرحلة بتغطية مثل هذه النفقات.

هنالك في القافلة أشخاص آخرون لهم مهمات مختلفة: إنهم أصحاب مهن متنقلون، منهم: الإسكافيون والحلاقون والبيطريون والنجارون... الخ، وهم يقدمون أفضل الخدمات، ويستفيدون بالوقت نفسه من المسافرين بممارسة مهنهم.

تتم في القافلة صفقات بمختلف البضائع، فالقافلة هي سوق متنقل يسيطر عليه روح التفاهم والفكاهة، وتجد في القافلة أشياء مفيدة آنيًا. إنّ هذه الخبرات والعلاقات تبدد قليلاً من وحشة المكان وصمته العميق.

الجمل وفوائده

أما الجمل فهو الرفيق الوديع للأعرابي، إنه يكتفي لطعامه بالشوك والحسك، ويتحمل الأتعاب ويقاوم أصعب ظروف الطبيعة، كما يتحمل العطش لأيام عديدة، وهو بتحمله ووداعته يساهم في التخفيف من تعب صاحبه المتجول دائماً.

يتمتع الجمل بالذكاء، ويحتفظ بذكريات معاملة صاحبه القاسية.

والويل للغريب الذي يحاول إزعاجه، فإنه ما تسنح له الفرصة حتى يطرحه أرضاً ويسحقه تحت خفه[1]، ويكون الجمل ضعيفاً في سنواته الثلاث الأولى وعنيداً في الوقت نفسه لأنه لم يكن بعد قد تحمل أو تعذب من نقل الأحمال. وإذا أكرهوه على الحمل في ذلك السن فإنه يصدر صرخات مزعجة ويثور ويرمي بنفسه على الأرض ويتمرغ بالتراب حتى الموت. وفي ساعة هيجانه الجنسي فإنه من الخطر جدًّا الاقتراب منه، فإنه ينسى ذاته ويرغي ويصبح عنيفاً جدًّا[2]، لكن ما إن تمر هذه الحالة الحرجة فإنه سرعان ما يعود إلى طبيعته الهادئة فيطيع صاحبه وينقاد له من جديد. ورغم قوة هذا الحيوان فإنه سرعان ما يقع على الأرض اللزجة ولا يسير إلا بصعوبة بالغة على الأرض الصخرية فإن خف أرجله اللحمي المنبسط لا يتحمل السير على الحجارة إذ يجرح بسهولة، ولذا ففي بعض الأحيان يضطر حاديه إلى فرش قطع من اللباد أمامه ليمر عليها.

إنّ جِمال العرب ليس لها سوى سنام واحد، وأجسامها مجردة من اللحم أي أنها ضعيفة وهي كثيرة الشثن أي غليظة الجلد، ورغم قوتها فهي كثيرة التقرح.

أما الجمال التركمانية التي شاهدتها في بلاد فارس فقد تراءت لي أكثر جمالاً وأحسن حالاً لكنني أشك في قوتها وفي سرعتها، فالجمال العربية أفضل. هذه الجمال معرضة للآكلة ولأمراض أخرى عديدة بسبب كثرة السفر والتعب والحرمان المستمر. مهما يكن من أمر فبالرغم من حالة الإنهاك التي تتعرض لها معظم هذه الحيوانات بعد مرور سنوات على خدمة صعبة للغاية، فإنها تستمر على تقديم الخدمة،

---

(١) الدميري: حياة الحيوان الكبرى ١: ٢٣

(٢) الدميري: حياة الحيوان الكبرى ١: ٢٣؛ وقالوا في أمثالنا «مثل بعير الهايج». التكريتي، عبد الرحمن: جمهرة الأمثال البغدادية، بغداد - ١٩٨٦ الرقم ٥٢٤٠.

وتجر نفسها جرًّا خلف القوافل ولا تتوقف عن السير إلا عندما تزهق أرواحها.

إنّ العلاجات التي تقدم لهذه الحيوانات عندما تصاب بالمرض هي حك قوائمها وجلودها بالقير والنفط. وبإحداث جروح في رقابها وفي بطونها، وأخيراً بكي جلودها في مواضع عديدة من أجسامها بحديدة خاصة توضع في النار وتحمى إلى حد الاحمرار. وفي أماسي معظم الأيام أسمع خوار الجمال قرب خيمتي وهي تتعرض لمثل هذه العمليات المؤلمة.

يجب الانتباه إلى الجمال التي لا تحمل غير البالات الصغيرة لأنها تسير عادة بلا هدى، وفي كثير من الأحيان تتيه في الأرض الواسعة.

أما الجمال حاملة التختروان أو الكرجاوة فلها مقود يمسكه رجل يسير أمامها فيقودها، ومثل هذه الجمال يتم تمرينها منذ صغرها لهذه المهمة للتعود عليها.

إنّ كل الجمال التي رأيتها إلى اليوم لها وبر أشقر فاتح.

* * *

عندما تتوقف القافلة، تنزل الأحمال عن الجمال في الحال، وعندئذ تنطلق في البادية إلى مسافات بعيدة لتتناول الأعشاب على راحتها. وتبقى عيون أصحابها ساهرة عليها من بعيد خوفاً عليها من الضياع في الصحراء إذا ما توغلت فيها بلا هدي. وعندما تغيب الشمس في المساء تعود الجمال إلى محطة القافلة للتوقف. فيعم

صاحب الجمل إلى عملية بسيطة ليؤمن بقاء الحيوان في محله إذ أنه يطوي إحدى قائمتيه الأماميتين ويشدها بحبل وهي مطوية[١]، فتبقى

(١) يقال عقل البعير أي ثنى وظيفه مع ذراعه وشدهما جميعاً في وسط الذراع بحبل. وذلك الحبل هو العقال (لسان العرب: مادة عقل).

الحيوانات المسكينة على هذه الحالة حتى الصباح وهي تجتر ما تناولته من أعشاب طيلة النهار.

كان الوقت قد قارب منتصف الليل عندما خرجت من خيمتي لألقي نظرة على الخارج. الكل كانوا نياماً، وسكون عميق كان يخيم على المكان. وفجأة بلغ سمعي صوت غناء من بعيد بمقام «الحداء» وهو المقام الذي يستخدمه الأعراب لحث الجمال على السير في الليل. كان صاحب الصوت شابًّا عربيًّا من العكيل، وكان يعيد عدداً من جماله إلى موقع القافلة بعد أن وردت الماء. وكان يتمتع بصوت جهوري واضح بحيث كان يؤدي المقام بمرونة.

في أثناء ذلك استيقظ بعض الأعراب في هرج ومرج لطرد خنزير ظهر بغتة وشرع يتمرغ في وسط مخيمهم، لكن محاولاتهم باءت بالفشل فقد هرب الحيوان. وسرعان ما عادوا إلى أماكنهم وناموا فخيم الصمت على المكان.

كنا قد بارحنا «**عقرقوف**» في ذلك اليوم منذ الصباح الباكر، ودامت المرحلة التي قطعناها أربع ساعات ونصفاً. ثم توقفنا في رميلة Remeylat وهي أرض جرداء. لكن وجدنا هناك بئراً لا بأس بمائها. وفي أثناء الرحلة هبت علينا ريح هوجاء وعاصفة من الغبار أعمت عيوننا، وأجبرت الجمال على الانحناء لا بل الركوع بين لحظة وأخرى لتفادي الغبار. لكن محملنا أي التختروان كان يمضي في طريقه، وكان على عائلتي الصغيرة أن تتجمع إلى بعضها لتحمي نفسها من غضب الطبيعة.

مررنا أولاً بأرض رخوة خربة إذ كانت من مكملات الهور، وهي مغطاة بالشوك على أنواعه، وأكملنا السير فمررنا بطريق جميل قادنا إلى أرض طينية مليئة بأشجار برية، شرع العرب بقطع ثمارها وهي حمراء اللون طويلة، وفي داخل الثمرة لب حامض الطعم[1].

---

(١) لعلها نبات الشفلح، انظر تذكرة داوود الأنطاكي ١ : ٢٤٦؛ والشفلح هو ثمر الكبر =

كان سير القافلة في أول الأمر باتجاه الجنوب الغربي ثم استمر نحو الغرب مباشرة.

إنه منظر ممتع حقًّا رؤية هذا العالم المتحرك: رجال وأحمال وجمال، وقد عمّ في وسطهم هرج ومرج على أثر هبوب العاصفة، فاختلط الحابل بالنابل. وكان منظر الرجال السائرين في المؤخرة أشبه ما يكون بالجبال المتحركة السائرة بخطوط منحرفة. فالجمال تبتعد بين لحظة وأخرى عن الطريق السوي فتدخل في جوانب الطريق لكي تلتهم النباتات فتشبع جوعها.

قبل الوصول إلى «رميلة» بنصف ساعة، عبرنا جدول الهيس Heis وهو يابس في الوقت الحاضر لكنه سيمتلىء بالماء في موسم الشتاء إذ يزوده الغراف به.

وبعد أن خيمنا بقليل، وكانت نحو الساعة السابعة مساءً. ومن جديد هبت عاصفة قوية كتلك التي تعصف أحياناً في جزر «الأنتيل»[1] والتي يصفها برناردان دي سان بيير[2] وصفاً دقيقاً في دراسته عن الطبيعة، فخيم الخوف وعمّت الفوضى بين أفراد القافلة كافة، فكنت أرى أعمدة الخيام وقد قلعت من أساسها وتمزقت، والأحمال تتدحرج على الأرض، والخيل وقد هاجت وانفكت أعنتها فاندفعت في كل الاتجاهات وهي تتضارب بجنون؛ أما الأباعر فكانت في حالات مختلفة، بعضها تسمرت على الأرض في وسط الأحمال، أو راكضة في الصحراء وهي تطلق صرخات مخيفة. أضف إلى ذلك كله صفير الريح وقصف الرعود

= إذا تفتح (لسان العرب).

(١) أرخبيل في أمريكا الوسطى في المحيط الأطلسي.

(٢) أديب فرنسي (١٧٣٧ - ١٨١٤) حبب في أعماله الأدبية العودة إلى الطبيعة، من مؤلفاته: بول وفرجيني ودراسة الطبيعة.

ولمعان البرق المستمر الذي كان يوحي للمسافرين الخائفين وكأنّ السماء سوف تنشق بين لحظة وأخرى. بينما كانت تسمع صراخات الأعراب الصادرة عن الخوف والهلع في تلك الظروف القاسية. يا لها من حالة صعبة جدًّا، يا لها من لحظات مخيفة حقًّا وكأنّ «الساعة» قد أزفت! فالكون كله كان يرتج بقوة ويبدو أنه سينغمر! كان منظراً مخيفاً حقًّا، وصورة واضحة لنهاية العالم!..

في تلك الأثناء بدأ المطر بالهطول، وبعد قليل توقفت العاصفة، وعاد الهدوء إلى الطبيعة وهكذا فإنّ خيمتنا التي تمزقت قبل سويعات، عادت فانتصبت في موضعها بعد أن تمّ إصلاحها؛ ونحن بدورنا استرجعنا قوانا وتخلصنا من حالة الدوار التي أصبنا بها. وكانت القافلة كلها بحاجة إلى أربعة أيام لا بل خمسة من الراحة من أجل ترتيب أحوالها، وإصلاح ما طرأ عليها من خراب، والبحث عن الخيول التي تاهت في الصحراء.

كان الجميع في حالة من التعب والإنهاك.. فهل سأحصل على عشاء في ذلك المساء، وهل سأستطيع النوم؟... كان الطباخون في حالة اضطراب، يبحثون عن الرز والدهن هنا وهناك وقد ضاعا بين الأحمال. أما فراشي فقد كان مبتللاً للغاية، وخدامنا قد هلكوا من التعب فرموا بأنفسهم فوق الطين والوحل وراحوا يغطون في نوم عميق، وبالكاد استطعت أن أعثر على سراج فأشعلت فتيلته ثم أشعلت غليوني وأكملت مقالتي هذه!

* * *

٤ تشرين الثاني - التوقف في رميلية

ملاحظات عن عرب العكيل - قصص عربية

كان صباح اليوم التالي رائعاً حقًّا، فقد انهمرت في الفجر قطرات المطر فلطفت الجو. ورغم هذا الجو الرائق فإنّ القلق كان يساورني لأنّ مؤونتي كانت قد شارفت على النفاد؛ ومن الصعب الوصول إلى مدينة «هيت» الواقعة على الفرات قبل حلول عيد رمضان [يريد: عيد الفطر] الذي سيكون بعد ١٨ - ١٩ يوماً... إنه توقع كئيب!...

صاحبنا «منصور» غائب دائماً، والأعراب يصرون على التوقف هنا، فقد تعودوا على العيش في وسط رمال الصحراء، كما تعودوا على البرد والحر، وعلى الحياة الصعبة المتنقلة، وعلى الحرمان بكل أنواعه. إنهم لا يفكرون بأنفسهم لأنّ الأهم هو أن يجدوا الكلأ لجمالهم. وهم كمسلمين ورعين ومتدينين فقد التزموا بصيام رمضان منذ ظهور هلال ذلك الشهر. فلا يفعلون شيئاً غير النوم إلى ساعة الغروب، وعندئذ يتناولون طعام الإفطار المكون من خبز الشعير والتمر والرز المطبوخ بالماء ويسكبون عليه قليلاً من الدبس. فإذا ما انتهوا من العشاء فإنهم يجتمعون عند المساء في حلقات أو مجموعات من عشرة رجال أو أكثر حول النار فيتبادلون أطراف الحديث، ويغنون ويعزفون بآلات مختلفة كالمزمار والطبل أو الدنبك؛ أو يصغون إلى راوية يروي لهم قصة من تراثهم(١).

أذكر إحدى الأغنيات التي سمعتها مساء أحد الأيام، وكان موضوعها

---

(١) من عادات الناس قديماً الاجتماع في الأماسي في بيوت أكابر القوم أو في مقهى الطرف لقضاء السهرة بتبادل الحديث أو الإصغاء إلى قصص البطولة مثل أبو زيد الهلالي أو عنترة العبسي يرويها القصاص أو هو القصخون بالتعبير البغدادي.

يدور حول فتاة اسمها «نورة» وكانت تندب حظها لأنّ أهلها كانوا قد قرروا تزويجها إلى شيخ عجوز.

تقول كلمات الأغنية ما معناه:

إنهم يريدون وصل غصن ياسمين طري إلى جذع قديم منخور..

تعساً لكِ يا نورة، فالموت أفضل لكِ، موتي، موتي

مئة مرة أفضل لكِ من هذا الاستعباد الذليل...

وتستطرد الأغنية:

واويلاه!... كيف أتزوج هيكلاً قبيحاً، أنفاسه منتنة إذا لامست الأشجار أيبستها، وإذا وصلت إلى المياه نجستها!... يقولون: إنه سيقدم لي مهراً: زوجاً من الجمال الشقر، وثلاثين شاة، وعشرين قميصاً من الكتان الأرجواني اللون، وسوارين من الذهب؛ لكني لو بعت شبابي وحريتي بهذا الثمن، فما عسى زميلاتي يفكرن فيّ؟ وماذا سيتكلمن عني؟... اليوم لمحت ذلك الظالم الذي يريدون أن يضحوا بي من أجله. أنفه المعقوف أشبه ما يكون بمنقار الغراب، وفمه كفم البعير، ولحيته كشوك الصحراء اليابس. أما صوته فيذكرني بعواء الضبع!

أراد أن يغازلني وأن يتكلم عن الحب، فأسرعت ورميت بنفسي في أحضان أمي، واويلاه!... لأنّ أمي دفعتني بجفاء. عندئذ ركضت وأخفيت نفسي بين قوائم فرس أبي التي كانت واقفة أمام خيمتنا!...[1]

(١) لقد بحثت وسألت من أجل التوصل إلى النص الأصلي لهذه الأغنية فلم أفلح. مهما يكن من أمر ففي رأيي أنها تستحق الدراسة لأنها تقدم لنا فكرة عن الحالة الاجتماعية في العراق وخاصة للفتاة التي كانت تكره أحياناً على الزواج.

تكملة الملاحظات عن عرب العكيل

مرحلة السابع من تشرين الثاني

(مختصر الرسالة الموجهة إلى السيد جوانان)

كنت حدثتك في إحدى رسائلي السابقة عن عرب العكيل، وترى الآن ملاحظات أخرى بخصوصهم.

هؤلاء الأعراب معروفون بقناعتهم في المأكل، وبساطتهم في التعامل والعادات، وبتمسكهم بأهداب الدين الإسلامي بلا تزمت. والذي يعجبني فيهم أنهم لا يستغربون من الأجانب بل يتعاطون معهم بالاحترام، لا بل أقدر أقول بحب، ويذودون عن الغرباء بكل ما عندهم من عزيز.

إن كان من مأخذ على تصرفاتهم فذلك هو فضوليتهم وهزلهم، وأرى إنّ ذلك يعكس روح المرح الطبيعي الذي يتحلون به إضافة إلى عاداتهم الريفية التي لا تتلاءم دائماً مع حياة الرفاهية. أراهم يوميًّا وهم يخالطون خدمي، ولا يتورعون عن التفوه بالكلام البذيء معهم، لكنهم في الوقت نفسه يمدون لهم يد العون في الخدمة.

يتمتعون بعيون ثاقبة، وملامح وجوه واضحة، وأعضاء متناسقة وقوية. يحملون البندقيات ذات الفتيلة ويستعملونها بدقة عالية، وكذلك الرماح. هم فرسان ماهرون ويركبون الأخطار حتى الموت إذا اقتضى الأمر.

يتكلمون العربية بلهجة خاصة بهم تختلف عن لهجة العامة المتداولة، وعندما يتحدثون فبالكاد أستطيع أن أفهم كلامهم رغم معرفتي الحسنة لهذه اللغة [أي العربية].

معظمهم يضفرون شعر رؤوسهم فتنزل على الصدغين، ومن عاداتهم أنهم يسيرون خلف الجمال وهم حفاة، وبلا سراويل داخلية. رؤوسهم بلا غطاء، وصدورهم شبه عارية. أما رؤساؤهم فيغطون هاماتهم على الطريقة التركية، لكنهم عوض غطاء الرأس الأحمر (أي الطربوش) الذي يلفون العمامة حوله على عادة الترك، فهؤلاء يستعملون الكوفية العربية (أي الغطرة أو الغترة) ذات اللونين الأحمر والأصفر التي يلفها العقال على الرأس وتهدل نهاياتها على الكتفين.

اليوم رحلنا من «رميلية» مع الصباح الباكر، وكانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف، وكان المناخ جميلاً. وإذ كانت السماء ملبدة ببعض الغيوم فإنها ستعمل على خفض درجة الحرارة والتقليل من شدة أشعة الشمس.

كان طريقنا في أول الأمر يمر بين الأعشاب، ثم صار كثير الحصى؛ لكننا أكملنا السير تارة على أرض سوية جرداء. وتارة أخرى على أرض متصدعة تكثر فيها الشقوق، أو أحياناً في أرض منبسطة، أو كثيرة المرتفعات.

لم يترك أولادي محلهم في التختروان، فقد وجدوا فيه راحتهم رغم طول الطريق.

في الساعة الثالثة بعد الظهر توقفنا عند موقع اسمه **كساف** **Kessaf** مع العلم أننا كنا قد عبرنا قبل ساعتين قناة «العوينات» **Awe'nat** التي تخرج من الصقلاوية وتتجه شمالاً حتى تتلاشى نياهها في رمال الهور. إنّ هذه القناة أي العوينات هي الآن يابسة. لكننا نجد في بعض الأماكن في مجراها بركاً من الماء مغطاة بالأعشاب والقصب. عليّ ألا أهمل ذكر قناة أخرى مررنا بها في طريقنا، وتقع إلى الشمال من القناة السابقة الذكر، إنها قناة (أو جدول) «النازوز» **Nazouze** التي تنقسم إلى فرعين،

فالفرع الذي يتجه نحو الشمال يقال له الأيس (؟) العيس (؟) lleis وقد حدثتك عنه على ما أذكر، وأما الفرع الآخر الذي يحتفظ باسمه فيمتد بنفس اتجاه العوينات، وهو جاف حاليًا، وضفافه مغطاة بشجيرات هي أفضل أنواع الخشب للوقود، ولهذا ترى أعراب المنطقة يجمعونها في حزم وينقلونها لبيعها في أسواق بغداد. وهؤلاء العرب ينتمون إلى عرب الجبور والجنابيين ويزرعون هنا الحبوب والخضروات. ولا يوجد أحد منهم هنا حاليًا إذ لا يأتون هنا إلا في الربيع.

● البدويات:

في أثناء السير أمعنت النظر في سيدة عربية يظهر أنها تعبت من هزات الجمل الذي كانت تمتطيه فنزلت إلى الأرض لتمنح أعضاء جسمها بعض الراحة بالسير على الأقدام.

كانت طويلة القامة، مهيبة القوام، رائعة الشعر المكون من جدائل تنحدر بلا مبالاة على كتفيها لتصل إلى وسطها. أما ملامحها العامة فتبدو جميلة رغم أنها نصف مغطاة بنقابها.

إنّ البدويات لا يتحجبن أمام الرجال كما تفعل الحضريات. لكنهن عندما ينتبهن إلى أنّ غريباً ينظر إليهن، فإنهن من باب الحشمة يرفعن الكوفية التي تحيط بالرقبة إلى الوجه حتى مستوى العيون التي تبقى وحدها مكشوفة. هذه العادة المنتشرة بين النساء في إخفاء الوجه كله لا بعضه عن الأنظار المتطفلة للرجال هي من العادات القديمة، ونجدها في معظم بلدان آسيا لا بل في أوروبا أيضاً.

نصبنا خيامنا على بعد مرحلتين من الفرات الذي لن نصله إلّا بعد أيام معدودة، إذ علينا أن نقوم بدورة كبيرة لنبتعد عن الطرق الوعرة التي لا تستطيع الجمال السير عليها. إنّ بعض المسافرين رحلوا منذ الصباح اليوم

الباكر سبقونا كثيراً - حتى وصلوا الفرات - فعادوا إلينا حاملين ماءً فراتاً لذيذاً!

إنّ الترك يطلقون بكل حق على هذا النهر اسم «**مراد صو**» أي «ماء المراد» فماء نهر الفرات يتمتع بشهرة عالية بأنه أطيب وأخف ماء في آسيا. أتذكر بأني عندما مررت للمرة الأولى في «**بيره جك**» وهي مدينة واقعة على ضفة هذا النهر، سمعتهم يقولون بأنهم يشربون الماء من عين صغيرة هناك متعللين بالقول بأنّ ماء الفرات يثير شهيتهم بحيث يكثرون من الأكل أي يجبرهم على المزيد من الإنفاق!

محطة قبور العبدان

في ٨ تشرين الأول تحولت القافلة من «الكساف» إلى «قبور العبدان» لتتوقف هناك بضعة أيام حتى تصل الأحمال المتأخرة. توجد في تلك المنطقة مقبرة تمتد على منحدر تلة، وينتصب في أعلاها قبران منعزلان يضمان رفات الأخوين: **عبدان**، وهما في نظر الناس من أولياء الله ويتمتعان بالشفاعة والقدرة على اجتراح المعجزات. وهناك قبور أخرى متناثرة على الأرض مشيدة كلها بالطين لكنها مغطاة بطبقة من الجص. وفوق كل قبر علامة مميزة تشير إلى أية قبيلة ينتمي ذلك الدفين.

إنّ نزولنا في محطة «قبور العبدان» كاد يترك لدي ذكرى مؤلمة جدًّا يسمح لي القارئ أن أذكرها باختصار. فإنّ أحد أطفالي الأعزاء مرض مرضاً ثقيلاً وأمسى على شفير الموت، واستسلمت إلى المصير المفجع بموته وأن يدفن في تلك البادية المقفرة، ولكن بمنه تعالة استرجع الطفل عافيته قبل مبارحتنا «قبور العبدان»، ولذلك فإنّ هذا الإسم كلما تذكرته يعود إلى فكري الظرف الصعب الذي مررت به في ذلك المكان.

حوار مع اعراب من قبيلة عنزة

ماذا يعرفون عن صاحب الجلالة الامبراطور نابليون

إحصاء تقريبي للقبائل الساكنة في الجزيرة

في الحادي عشر من تشرين الثاني، إذ كانت قافلتنا لا تزال مخيمة في الموضع نفسه، قمت بجولة في الصباح إلى الموضع الذي يجتمع فيه عرب العكيل؛ وما أن عدت إلى خيمتي حتى سمعت ضجيجاً كبيراً في الخارج، فرفعت طرف الخيمة فرأيت جمعاً كبيراً من العرب وعدداً كبيراً من الجمال يغطون الصحراء أشبه ما يكونون بالجراد لكثرتهم!

كان هؤلاء الأعراب من **السوالمة** وهم فخذ من قبيلة عنزة المستقرة في الجزيرة[1] وقد عادوا اليوم من غزو شنوه على نجد فباغتوا إحدى القبائل الوهابية الساكنة في «الشكرة» Chegra و«الشجر» Chedjer فغلبوا رجالها، والآن يعودون وهم يجرون خلفهم غنيمة ثمينة قوامها أكثر من ألفي جمل، ومن العبيد ثلاثمائة! إضافة إلى قطع كثيرة من اللباد وأنواع المؤون وغير ذلك. ولم تستغرق حملتهم أكثر من خمسة عشر يوماً، إذ عبروا الفرات مرتين في إحدى المخاضات الواقعة إلى الجنوب من هيت.

توقف الرجال برهة من الزمن في موقع خيامنا ليتبادلوا الكلام مع أصحابنا متفاخرين بمغامرتهم. وقد ساورني الشك عند رؤيتي هؤلاء اللصوص الذين تجري في عروقهم رغبة الغزو أنهم سينقضون علينا ويستولون على كل ما لدينا ويتركوننا في تلك الفلاة كديدان عارية، أو في الأقل يأخذون منا ما خف حمله وغلا ثمنه. لكن شيئاً من هذا الظن لم يحدث، إذ اكتفوا بشراء بعض المناديل من تجار قافلتنا؛ لقد كنت على خطأ، وإنّ بعض الظن إثم!

---

(١) العزاوي: قبائل العراق ١: ٢٨٣.

توقف بعضهم عند صاحبنا منصور وطلبوا منه أن يتوسط من أجل استرجاع جملين من عرب الكرطان[1] Guertan المخيمين عند الفرات إذ سرقوا الجملين منهم في المرة السابقة عندما مروا من هناك. ولما كان منصور شيخ قافلتنا حليفاً مخلصاً لهم، فإنه أرسل في الحال وفداً إلى تلك القبيلة مطالباً بالتعويض عن عمل الاستيلاء الغاشم الذي قاموا به، مهدداً بأنه في حال رفض رد المسلوب فإنه سيحالف السوالمة وسيشترك معهم من أجل الاستيلاء على حيواناتهم. لكن هذه التهديدات لم تفعل مفعولها عند القوم وبقيت الجمال بيد الغاصبين. إنّ هؤلاء الناس يعيشون عن طريقة استحواذ بعضهم أموال بعض.

ولنعد الآن إلى السوالمة فإنهم في مدة توقفهم القصيرة بيننا خالطوا عرب العكيل، وداروا في مخيمنا، واقتربوا من خيمتي لأنهم سمعوا بأنها تعود إلى رجل افرنجي فأرادوا رؤيتي، وعرفوا أني مسافر إلى حلب مع أسرتي. إنّ كلمة افرنجي تثير عندهم حب الاطلاع أو الفضول إذ تصوروا أنّ شكل الافرنجي يختلف عن سائر خلق الله. لكني عندما خرجت إليهم وكلمتهم بالعربية استغربوا لا بل دهشوا، فهشوا لي وبشّوا وتقبلوني باحترام. وأهم ما كانوا يريدون أن يحدثوني عنه هو أن أفهم مدى الفوائد التي اجتنوها من غزوهم للوهابيين، والشيء الآخر هو أن يطلعوني عن أصل وكرامة قبيلتهم الأم أي العنزة التي وصفوها **بسيدة الصحراء!**.

وأردفوا قائلين: إنك باجتيازك الشامية سترى في طريقك عدداً كبيراً من خيامنا، فأنت منذ الآن مدعو للنزول عندنا بعض الأيام لتبديل الهواء على راحتك، حسب تعبيرهم! فهواء تلك المنطقة نقي، وفي الوقت نفسه فإنك بحلولك عندنا تأكل معنا خبز وملح[2].

---

(١) العزاوي: قبائل العراق ٣: ١٣٦.

(٢) تقديم الخبز والملح للضيف دلالة عن الألفة والوفاء. والخبز مادة غذائية أساسية =

وأضافوا أخيراً: هناك سوف يستقبلونك إخوتنا على الرحب والسعة، وسوف يذبحون إكراماً لك خرافاً سمينة لا بل صغار الجمال؛ وسيقدمون لك حليباً لذيذاً، وكمأة عطرة، وسوف نريك كل ما في الصحراء من عجائب وغرائب.

وأردفوا قائلين: في العام الماضي جاء واحد منكم لزيارتنا يطلب شراء خيول أصيلة، فبعنا له خيولاً رائعة[1]، وبالتأكيد إنك عرفت منه كم تمتع من بقائه تحت خيامنا التي هي أفضل من بيوتكم التي أشبه ما تكون بالسجون، ولذلك نحن لا نقبل السكنى فيها مهما أعطينا من خيرات العالم لأننا نشعر فيها بالاختناق.

شكرتهم على لطفهم، مؤكداً لهم أنّ دعوتهم تلقى كل القبول في نفسي، وأني سأحاول أن ألبيها. . . واقترب بعضهم مني أثناء هذا الحديث وبدأوا يلمسون يدي وذراعي وكتفي. وكنت في ذلك الوقت أحمل نظارات فأخذوا يسألونني عن اسمها وفائدة استعمالها. فلما شرحت لهم ذلك طالب كل واحد منهم أن يجربها فلم يستطيعوا رؤية شيء فأعادوها إليّ مستغربين من اختراعات الفرنجة الغريبة.

ثم سألوني عن حكومتي، وعن عاداتنا المختلفة، وانبروا يسألون: «ما مدى قوة سلطانكم؟» وقال آخر: «أليس هو الذي احتل مصر قبل

= معروفة، أما الملح فليس هو ملح الطعام كما يتبادر للذهن، بل هو اللبن الحليب. يقال ملحنا لفلان ملحاً أي أرضعناه حليباً. (قاله د. حازم البكري: دراسات في الألفاظ العامية الموصلية، بغداد ١٩٧٢، ص ١٨٦).

(١) قال الرحالة أنهم يتحدثون عن القنصل الهولندي في حلب الذي جاء إلى تلك الأطراف في العام السابق واشترى عدداً حسناً من الخيول. ينقل الرحالة فريزر عن قبيلة زبيد قولهم: «إننا إذا أردنا أن نحصل على الأصائل من الخيول نذهب إلى عنزة فننهب منها ما نريد!» رحلة فريزر، ترجمة جعفر الخياط، بغداد ١٩٦٤، ص ١٩٤.

سنوات»[1]. وأضاف آخر: «يقولون عنه أنه سخي» وقال أيضاً: «أتمنى أن أرسل إليه واحداً من أفضل خيولي هدية مني، فهل تستطيع أخذه معك»؟ واختتم أحدهم سلسلة الأسئلة بالقول: «أيستقبل بلدكم من عرب العنزة من أمثالي؟»...

إنّ هؤلاء الضيوف الثقيلي الدم تركوني أخيراً، ولم أكن أتصور هذا العدد الكبير، وكم فوجئت عندما علمت من عرب العكيل بأنّ عددهم كان أكثر من أربعة آلاف رجل. ولكن ما أهمية هذه الجماعة بالنسبة إلى العدد الهائل من القبائل المتناثرة في أنحاء ما بين النهرين الواسعة؟ ومهما يكن من أمر فإنه من الصعوبة بمكان إحصاء عددهم. لكني سأحاول أن أعطي عدداً تقريباً اعتماداً على المعلومات التي أعطيت لي.

وقبل أن أطرح جدولي أمام أنظار القراء، أرى من الضروري أن أنبههم إلى أنّ العرب يقسمون عادة إلى طبقتين هما: البدو والفلح[2]، أي البدو بحصر المعنى ثم العرب الثابتون أي الذين يتعاطون الفلاحة.

هؤلاء الفلاحون يسكنون في المناطق الخصبة على ضفاف الأنهار، ويمتهنون الزراعة، ويعيشون على ما تدره الأرض من غلات. أما الآخرون فإنهم يجدون سعادتهم في حياة الصخب والحرية. وتتجه إصبع الاتهام إليهم في كل حادث اعتداء على أموال الآخرين، أو على أناس من أمثالهم. وفي كل يوم يبدلون أماكن إقامتهم، فينقلون معهم مواشيهم الكثيرة، ولهذا يعتمدون على الحليب ومشتقاته لطعامهم، وعلى الثمار التي يحصلون عليها من غزواتهم. إنهم يعتبرون فلاحة الأرض عملاً خدميًّا مهيناً[3].

---

(١) كانت حملة نابوليون الأول على مصر سنة (١٧٩٨ - ١٧٩٩)

(٢) استعمل الرحالة التعبير المتداول إلى اليوم: فلح والمفرد فلاح.

(٣) علي الوردي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص ١٣.

إلى جانب هذا التقسيم ما بين الفلاحين (الحضر) والبدو، هناك تقسيم آخر لهذه الأمة ما بين الجماعة (أو الجموع) Djemah[1] وما بين القبائل. ولكل قبيلة اسمها الخاص بها الذي يميزها. لكن مجموعة عدد من القبائل تعتز بالانتماء إلى القبيلة الأم أي الأصل الذي تفرعت منه، كالأغصان التي تتفرع من أصل الشجرة الواحدة. لكن الصراع المستمر بين القبائل قد يخلق انقساماً في القبيلة الواحدة، فنجد عند ذاك عدداً من البيوت تنفصل من القبيلة وتنتمي إلى اخرى لكن مع المحافظة على اسمها القديم. ولذلك عند النظر في الجدول التالي قد تجد اسم قبيلة يتكرر في قبائل مختلفة.

واعلم أيها القارئ بأني ألغيت آل التعريف الذي يتقدم أسماء القبائل في هذا الجدول.



الناعور

(١) قال في الهامش: مفرده «الجمع»؛ انظر العزاوي: قبائل العراق ١: ٢٨٩.

الطبقة الأولى - العرب البدو
قبيلة الجلاس[1]

ترجع بالأصل إلى «عنزة»، واسم شيخها الحالي: زراي الديري.

إنّ كل القبائل المكونة لهذه القبيلة هي قوية، وغنية جدًّا بالماشية. إنهم العرب الوحيدون الذين تظهر عليهم معالم العز والغنى. يضعون على رؤوسهم الغطاء الشرقي ويمتطون عادة الخيل المطهمة كاملة العدة المدرعة بالحديد على عادة الفرسان الأقدمين.

• القبائل[2]

شيلان	Chelan	رماح	Remah
روالي	Rouale	مواجد	Mudjet
عبدلي	Abdelle	مليحان	Melyhan
بدور	Bedour	الفتلة	Fetele
بيلاس	Belas	كواكبي	Kouakebe
سوالمة	Soualeme	الكشكوش	Guchqueh
خمسي	khumsi	مانح	Maneh

(١) العزاوي: قبائل العراق ١: ٢٧٧.

(٢) كان التوصل إلى معرفة أسماء هذه القبائل العربية المكتوبة بالفرنسية أمراً صعباً إلى حد ما، فاستعنت بكتاب العزاوي: قبائل العراق، وعمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة في مجلداته الخمسة، ولم يكن الأمر هيناً، فليعذرني القارئ الكريم إن لم أصب المرمى دائماً.

Rebehan	ربيحان	Djerfe	جرفى
Restan	رستان	Metchatere	متشطر
Deleme	دليم	Soualche	صوالحة
Nesseir	نصير	Khedellat	خديلات
Guechoum	غشوم	Emezat	عميزات
Mechewel	مشيول	Chemelyat	شميلات
Mureid	مريد	Rous	روس
Hegueche	الهقيش	Eguaguere	
Dengli	دنجي (؟) دنكلي (؟)	Henatis	حناتيس
Keresse	كريشة(؟)	Awade	عوادي
Djedee	جدي	Mehioube	مهيوب

قبيلة الدفيس

واسم شيخ القبيلة الحالي: مانع الدوشي

Nefise	نفيس	Heguiche	الهقيش
Eureif	عريف	Asker	عسكر
Mechafide	مشافيد	Mumere	

Semeyde	صميدة	Tvournie	
Seyde	سيدي	Meadine	ميادين
Deran	ديران	Soueide	سويدي
Telouh	تلوح	Hellaf	حلاف

قبيلة الصكور

أصلها من العنزة شأنها شأن قبيلة الجلاس، يرأسها حاليًّا الشيخ ابن هذال:

Mutarefe	متعارفة	Selatin	سلاطين
Heyaze	حيازة	Guemeusse	القمصة
Djebban	جبان	Kemsan	الكمزان
Emarat	امارات	Ressalin	الرسالين
Chereife	شريفة	Ebadet	عبادات
Soulemat	سوليمات	Djacem	جاسم
Djelaide	جلاعيد	Remah	رماح
Aly	علي	Mouechan	مويشان
Dehamche	دهامشة	Mouanch	
Heblan	حبلان	Euref	اورفى

Eubende		Eubuyde	عبيد
Meussenske		Gubein	قبين
Sebah	صباح		

قبيلة شمر

يرأسها حاليًا الشيخ فارس الجربا[١]

Abde	عبده	Beguelat	بقيلات
Elian	عليان	Djekeidem	
Benir	بنير	Djedle	جذلة
Secidat		Deraidje	دراجي
Subhi	صبحي	Togha	طوغا
Munib	منيب	Tegzherrat	
Eslem	اسلم	Mergbenin	
Zegaride	زكاريط	Djahfar	جعفر
Nedjem	نجم	Khemmas	خماس
Tabet	ثابت	Gunnam	غنام
Hereire	حريرة	Chemeile	شميلة

(١) العزاوي: قبائل العراق ١: ١٤٤.

Sadan	سعدان	Sebahat	سبحات
Hemmam	همام	Nesrella	نصر الله
Remouz	رموز	Eguab	عكاب
Remeiran	رميران	Selete	سليط
Efaride	عفاريت	Tchetaly	
Kesredje	خزرج		

قبيلة الفضول

رئيس القبيلة الحالي: ابن فلاح

Tchetere		Mechafide	المشافيد
Beni Kaled	بني خالد	Lebylat	لبيلات
Emour	العمور	Selam	سلام
Sebhan	صبحان	Benilam	بني لام

قبيلة العبيد

لها في الوقت الحاضر شيخان هما: جاسم بيكا وعلي الحمد

Elbou Elgue	البو علقة	Leheibe	اللهيب

غرير	Gheureir	البو حياز	Elbou Heyaze
البو حمد	Elbou Hamad	البو شاهر	Elbou Shaher
يماني	Yemani	البو غربة	Elbou Guerebe
شاوي	Chawoue	البو صغير	Elbou Segueir

قبيلة الجاسم

واسم الشيخ الحالي: ناصر

الرفيع	Reffey	حميد	Humeide
الحسية	Hussey	سويد	Souide

قبيلة بني جيس Beneidjes

شيخ القبيلة الحالي: سلطان الشيحان

سويد	Souede	عزيزة	Azize
سادة	Sada	عديل(؟)	Eudeil
زتلات	Zenalat	هيشان	Etchan
نجارس	Negaresse		Kechebe

قبيلة زبيد[1]

واسم شيخها الحالي : خطاب

Meumere	المعامرة	Mechaikh	مشايخ
Abou Soukan	البو سلطان(؟)	Djemile	جميلة
Seide	سيد	Hedjire	هجير
Deleim	دليم	Mendize	منديز
Yessan	يسان	Heureire	الهرير
Djebours	جبور	Abou Ferradje	بو فرج
Beni Temime	بني تميم	Zeni Leide	
Abon El-Emere	أبو الأمير	Nafeh	نافع

قبيلة الفيس

يرأسها حاليًّا الشيخ فارس

Guerguerie	الجرجري	Rachede	راشد
Siale	سيالة	Achetie	اشتي

---

(١) اضطر بعض أفخاد الزبيد حاليًّا للهجرة مع أسرهم بعد أن ضاقوا ذرعاً بحياة التيه في الصحراء إضافة إلى البطالة، فجاؤوا واستقروا على ضفاف دجلة والفرات وشرعوا يمارسون الزراعة وأعلنوا ولاءهم لباشا بغداد؛ لذلك لن أعيد ذكرهم لاحقاً عندما =

الطبقة الثانية: العرب الفلح

قبل البدء بكتابة أسماء الجماعات التي تذكر ضمن جدول هذه الطبقة، أود أن أنوه بأنّ هؤلاء ليسوا سوى خليط من مختلف الناس الذين إذ أرادوا أن يعيشوا بسلام ممارسين الزراعة، وضعوا أنفسهم تلقائيًّا بحماية باشا بغداد الذي يعتبر نفسه أنه سيد العرب كلهم أي الحضر والبدو على السواء، ومن عاداته أن يرسل كل سنة إلى كل شيخ منهم هدية شرف هي عبارة عن عباءة عربية. إنه يشبه بفعله هذا الخلفاء السابقين بعد أن فقدوا سيطرتهم الفعلية على الفرس لم يهملوا عادة إرسال كتاب التولية إلى أولئك الذين رفعوا لواء العصيان على الشرعية وأقاموا ذواتهم ولاة على الأمصار.

هؤلاء أيضاً - أي العرب - رغم إعلانهم لواء العصيان واستمرارهم عليه. لكنهم كانوا يتقبلون كتب التولية مظهرين طاعة ماكرة دون أية قيمة ملموسة لأنها صادرة عن سلاطين جبناء يترنحون على عروشهم.

الشرابيون	Cherabiin
دبابات	Diabat
بقارة	Beggara
أبو شهلان	Abou Chehlan
هؤلاء يسكنون على ضفاف نهر الخابور	

= أتطرق إلى العرب الحضر (هامش للمؤلف)

Egueidat	عكيدات
Woulde	الولد
Sabekha	السبخة
Arab el-Bacha	عرب الباشا
Arab el-Felh	عرب الفلح
Kalif Ebachir	خلف البشير

هؤلاء يسكنون [دير] الزور، وهي غابة واسعة جدًّا تمتد على طول الفرات وسوف يجري الكلام عنها لاحقاً.



Abou Geunam	أبو غنام
Abou Reyache	أبو رياش
Edwan	عدوان
Djeiche	جحيش
Abou Feleh	أبو فلح
Efadele	أفاضل
Abou Sahide	أبو ساعد

هذه القبائل تسكن على ضفاف النهر نفسه ما بين بيره جك ودير الزور.

Guertan	القرطان
Djenabiin	الجنابيين
Beni Yousef	بني يوسف
Beni Nezat	بني نزات
Cheguerin	السقرين (الشكرين)
Murchede	مرشد
	يسكنون على ضفاف النهر نفسه بين هيت وعنه.



Tchelebiin	شلبيون
Beni Sahde	بني سعد
Mudjemmah	مجمع
Rouachede	رواشد
Djemile	جميلة
Muchaede	مشاهدة
	يسكنون على ضفاف نهر دجلة بالقرب من بغداد

العزة	Edjze
بيات	Bayat
بني ويس	Beni Woueis
ندا	Neda
يسكنون على ضفاف دجلة اعتباراً من دجيل إلى الموصل تقريباً	

سوامرة	Souamere
دوريين	Douriin
فارسية	Faressie
	Guercir
بوحمدان	Bou Hemdan
سويدي	Soueidie
يسكنون على ضفاف دجلة، اعتباراً من دجيل إلى الموصل تقريباً.	

فالمجموع الكلي يكون في آخر الأمر ٢٠٤ قبائل من الطبقتين أي البدو والحضر. ولو اعتبرنا أنّ كل قبيلة من القبائل المذكورة في الجدول تعد خمسمائة شخص (وهذا في أقل تقدير بالتأكيد) فيكون المجموع ١٠,٢٠٠,٠٠٠ شخص. ولو اعتبرنا من جهة أخرى أنّ التقسيم الوارد في الجداول المذكورة أعلاه ليس كاملاً إذ هناك عدد كبير من القبائل العربية التي نجهل أسماءها، إضافة إلى السكان الآخرين كالأكراد واليزيدية

المنتشرين في منطقة الموصل وماردين ودياربكر وبتليس. . . الخ الذين لم يدخلوا في حسابنا، عندئذ نرى أنّ منطقة الجزيرة ليست خالية من السكان كما يتبادر للذهن لأول وهلة، أو كما صورها لنا بعض الرحالة لقلة اطلاعهم، أو لأنهم مروا في بعض المواقع مرور الكرام فكانت غير مأهولة أو قليلة السكان.

هناك جدول آخر مفيد جدًّا على ما أظن، وهو يفيدنا كدليل لفهم الجدول السابق. إنه يتعلق بالتسميات المتشابهة بين بدو «الشامية». فمنذ النظرة الأولى يظهر بوضوح كم أخطأ الجغرافيون عندما أطلقوا اسم «الصحراء» على هذه المنطقة الواسعة الممتدة من الفرات إلى حدود نجد والتي تكوّن ما كان يطلق عليه اسم «بلاد العرب العليا» التي كانت قاعدة الخلافة العربية العظيمة، وهي منذ نحو قرن من الزمان أرض الوهابيين، فهم اليوم أقوياء وفي ازدياد مستمر بحيث أصبحوا يهددون بغزو آسيا.

وعندما أقول بأنّ الجغرافيين [الأوروبيين] قد أخطأوا بإطلاقهم مصطلح الصحراء على أرض «الشامية» لأنه بهذا المصطلح نفهم عادة الأرض الخالية من السكان، بينما كما قلت أعلاه بأنّ هذه الأرض معمورة ويسكنها جمع غفير من البشر [على طريقة البدو] لكن الباحثين والرحالين لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة.

أختم هذه المعلومات بملاحظة عن بلاد العرب أراها مهمة: إذ أود أن أتحدث عن التوازن المستمر والثابت منذ قرون في سكانها. لأنّ سكان هذه المنطقة لا يزالون يتكاثرون رغم أنّ الأرض لا تستغل عن طريق الزراعة، ورغم الأوبئة التي تجتاحها، ورغم الصراعات الدموية بين مختلف القبائل، وأخيراً رغم الكوارث الطبيعية المنتشرة هناك. فكيف نعلل ذلك؟ إني أترك تفسير ذلك إلى الاختصاصيين.

إنّ **قبيلة العنزة** أو قبيلة العنزة هي المسيطرة على الصحراء، وهي تأتي من حيث القوة بعد جماعة «الوهابية» ويحسب لها ألف حساب. وهي ككل البدو ترجع في أصولها إلى بلاد نجد، وتنقسم إلى عدد كبير من القبائل، وكلها غنية بكثرة ما تملك من جمال.

كان الوهابيون سابقاً مسيطرين وحدهم على الشامية بلا منافس، أما اليوم فعلى إثر انقسامها إلى قبائل عديدة وضعت أنفسها بمحض إرادتها تحت إمرة سعود، ففقدت من جراء ذلك بعض الشيء من سابق مجدها وقوتها، لا بل أضحت تدفع العشر عن كل خيراتها إلى المذهب الجديد دون اعتناق تعاليمه، أو الخضوع لسلطته. فهي بقيت أمينة إلى القيادة وعاداتها السابقة. ولا تزال تحتفظ بشيء من العنفوان والحركة بحيث أنها ترسل من وقت إلى آخر حملات من المقاتلين يقال لها «الغزو» في منطقة بين النهرين أو في الصحراء لتنقض على الضعفاء فتسرق وتثير الرعب، فهي ليست سوى كارثة تحل برأس أولئك المستضعفين. لكن هذه القبيلة صاحبة الصولات خارج حدودها، تحمل في داخلها جرثوم التنافر المستمر الذي يؤدي إلى صراعات دموية داخلية التي تمزقها. تبدأ هذه الخصومات الداخلية في أحيان كثيرة من تنافر أو خصومة فردية بين شخصين منتمين إلى عشيرتين مختلفتين، عندئذ تراهم يقومون قومة رجل واحد مع حلفائهم ضد الطرف الآخر مع حلفائه فيمزقون بعضهم بعضاً بضراوة. هذه الرغبة المقيتة المتجذرة في أبناء قبيلة العنزة بأن يدمروا أنفسهم الواحد الآخر لا تفاجئنا البتة لأننا نجدها عند بعض الأمم المتحضرة، فكم من ملايين الرجال راحوا ضحية الحروب الأخيرة في أوروبا. وفي الواقع فالمعروف بأنّ البشر أحبوا الحروب منذ أن عاشوا في المجتمع، ويعلمنا التاريخ بأنه بالرغم من الضربات الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى التي نزلت على رؤوسهم فإنهم يستمرون على التصرف باندفاع وتكالب.

يمكننا أن ننظر إلى قبيلة «العنزة» كشعب يعيش على السطو ولا يستطيع العيش من غير ذلك. إنهم يتجاهلون أهمية الزراعة وفوائدها ويحتقرون سائر المهن.

وإذ لا رغبة لهم ولا استعداد للعمل. وجل ما يقومون به من جهد هو تربية الحيوانات، وفي قطع الطرق لا أكثر. ولذا تراهم في حركة مستمرة، يشاهدون أحياناً في مدن سوريا والجزيرة لاقتناء السلاح وشراء الأقمشة على أنواعها: القطنية منها والحريرية، إضافة إلى بعض الأدوات الضرورية التي يحصلون عليها عن طريق المقايضة بالحيوانات.

* * *

● اختصاص النساء

نساء القبيلة نشطات جدًّا، ينصب اهتمامهن على غزل الأصواف، ونسج الأبسطة والخرجة التي توضع على ظهر الدواب، والأنسجة المفيدة لمختلف الاستعمالات وخاصة تلك الضرورية لإعداد الخيام حيث يعيشون.

ومن اهتمامات النساء أيضاً العناية بالحليب ومشتقاته. والأعمال البيتية اليومية، كإعداد الطعام وتنظيف الخيول والجمال. ونستطيع القول بأنّ واجبات النساء ومسؤوليتهن هي أكبر لا بل أثقل مما يقع على عاتق الرجال الذين لا همّ لهم غير الاشتراك بالغارات والغزو والتبادل التجاري في الأماكن المأهولة.

* * *

● النظام الاجتماعي

أما إذا أردنا التطرق إلى النظام في وسط هذا الشعب، فلا شيء

أغرب من طريقة إدارة هؤلاء الناس، فكل قبيلة يسوسها شيخ خاص بها يتمتع بسلطة محدودة وعارضة، لكن أهم دور يلعبه هذا الشيخ هو المحافظة على السلام والتفاهم المتبادل بين الأسر من خلال الكلام اللطيف أو العتاب أو عن طريق الإقناع أكثر من التوبيخ والقصاص. إنّ الجرائم التي تقترف في وسطهم تعالج عن طريق التعويض لا العقاب، وإن قوبلت الجرائم في حالات خاصة بالأخذ بالثأر فلان المجرم هو من أتباع قبيلة ضعيفة وغير قادر على رد الصاع صاعين.

تعالج جريمة السرقة على سبيل المثال بالتعويض بمقدار المسروق أو بما يقابله، وإما إراقة الدم فبعدد من البعران. وإما القتل فبالقتل. ولكن يحدث في بعض الحالات أنّ القاتل يلتجيء إلى خيمة شيخ القبيلة أو إلى رئيس قبيلة له مكانته المتميزة فهو ينجو من الموت، ويتم عندئذ التوصل إلى حل مرض بتدخل الشيخ الذي تمت الدخالة عنده[1].

أما بالنسبة إلى الزنى فتقاصص المرأة الزانية بالقتل من قبل أهلها أنفسهم إذ يقومون بطعنها بخناجرهم في الحال، أما الشريك الزاني فإنه يجد خلاصاً عن طريق تقديم عشرين بعيراً وفرساً، أو مبلغاً من المال يساوي ثمن الحيوانات المذكورة. عليه أن يؤدي ذلك إلى الطرف الذي لحقت به الإهانة.

* * *

● الضيافة عند البدو

ولنتكلم الآن على الضيافة التي يتباهى بها العرب، وقد نوه بها بعض الرحالين. وإليكم شيئاً منها:

---

(١) العزاوي: قبائل العراق ١: ٤٠٩ وما بعدها.

إذا دخل غريب عليهم فإنهم يعاملونه باحترام وبروح الصداقة، لكن هذا الإعرابي نفسه الذي استقبله استقبالاً حسناً في خيمته لن يتورع عن قتله بلا رحمة ومن الوريد إلى الوريد إذا صادفه في الصحراء. فيمكن أن يقال عن هذا الإعرابي أنه طيب تحت سقفه وشرير خارجه.

ملاحظة أساسية عن العرب لا بد أن أبديها هي أنهم منذ قرون عديدة هبطوا إلى حالة من الانحطاط والهوان، بحيث يصعب علينا التصور بأنّ هذا الشعب كما هو اليوم من حيث الجهل والخشونة أن يكون سليل أمة عريقة صاحبة حضارة مزدهرة وعظيمة استطاعت بنشاطها وحيويتها أن ترتفع إلى موقع الذرى، وكانت لمدة طويلة مستودعاً للمعارف الإنسانية وقدمت عدداً من الرجال اشتهروا في الميادين كافة، حتى أنّ بعض معارفها شعت حتى على أوروبا التي كانت في حالة من التأخر والبربرية. وهي بقوة مؤسساتها وتفوقها بالسلاح سيطرت على شعوب آسيا شرقاً، وهددت مراراً دولة الروم حتى أنها كانت ترتجف أمامها.

ملاحظة أخرى ألفت نظر القارئ إليها:

إنّ آلاف الأشخاص العرب التقيت بهم، ويقدرون بستة آلاف إلى سبعة آلاف، لم أجد رجلاً واحداً لم يكن يتحلى بروح الأسرة مع مواطنيه. كما لم أجد رجلاً واحداً إلا وله لحية، وهي قصيرة عادة، وقل أن تكون بيضاء، فأنا أعلم، وأعتمد أيضاً على ما رددوه أمامي مراراً، أنهم - أي العرب - لا يدركون سنًّا متقدمة رغم نقاء الهواء في مناطقهم بعكس ما في المدن حيث تنزل بسكانها ويلات كثيرة بسبب رداءة الهواء.

* * *

كانت غارات العنزة في الجزيرة، أي عبر الفرات، أو في الجزيرة الشامية، نادرة جدًّا في ما مضى؛ لأنّ نهر الفرات نفسه كان يشكل حاجزاً يقف دون تحقيق رغبتهم. لأنه عندما كانوا يصممون على عبور هذا النهر

كان عليهم أن يمكثوا مدة طويلة عند ضفته من أجل جمع الأخشاب الضرورية لإعداد الأكلاك وهي الواسطة الخاصة بالعبور لهم ولجمالهم ومؤونهم من هذه الضفة إلى الأخرى. ومثل هذا الانتظار الممل كان يؤدي بهم إلى التأخير ومن ثم يولد الإحباط، فيتراجعون عن خطتهم. لكنهم بعد أن اكتشفوا قبل ثلاثة أعوام أو أربعة بأنّ نهر الفرات قابل للعبور في بعض المخاضات، فمنذ ذلك الحين بدأ سكان الجزيرة لسوء حظهم يعانون الكثير لازدياد الغارات المخربة عليهم.

مرحلة ١٦ تشرين الثاني
محطة ام الرؤوس

قمنا منذ الفجر ونقضنا الخيام، وسرنا نحو ساعتين ونصف حتى توقفنا في منطقة «الرؤوس» الواقعة على مسافة ثلاثة أرباع الفرسخ من الفرات، في جوار عرب «المرشدة»[1] الذين يزرعون على ضفافه الخصبة مختلف أنواع الحبوب والبقول. واسم شيخهم «جابر» الذي اكتسب في تلك الديار اسماً لامعاً لحسن استقباله للمسافرين.

يتكون موقع «أم الرؤوس» من تلال حصلت على هذا الاسم بسبب قتال دموي جرى قديماً بين قبيلتين متعاديتين، فتساقط القتلى، وتدحرجت الرؤوس. وكانت أكثر من مئة رأس! جمعت هناك ووضعت على رؤوس الرماح!

على بعد ثلاثة فراسخ من هذا المكان، بالاتجاه الشمالي - الغربي، يقوم بناء دائري من الطين هو ضريح الشيخ محمد وهو من الأولياء الذين يكرمه العرب كثيراً.

---

(١) لعله يريد المراشدة كما عند العزاوي: قبائل العراق ١: ٢٥٥.

استلفت العرب نظري إلى منارة قديمة وخرائب قائمة على الضفة الشامية، وعرفت بأنّ تلك الخرائب تحمل اسم **«المشاهدة»** ويظهر أنها بقايا مدينة قديمة ترجع إلى عهد الخلفاء [يريد العهد العباسي].

إلى الشمال من «المشاهدة» بنحو فرسخ، وعلى الجانب الآخر من الفرات، تقوم بلدة واسعة اسمها **«الرمادي»** تسكنها جالية من العقيليين الذين يهتمون بزراعة الأرض ويعيشون باكتفاء. وهم يعدون بنحو ثلاث مئة بيت، ولهم عدد من السفن الصغيرة المطلية بالقار، يحملونها بالمنتوجات الزائدة عن حاجتهم ويذهبون بها إلى الحلة والفلوجة[1] وغيرها.

أسرع رئيس قافلتنا الشيخ منصور لزيارة مواطنيه الساكنين في هذا المكان النائي، وترك عندهم أمانة وهي المهرة المولودة من فرسه وكانت قد أزعجته في الطريق.

لاحظت اليوم وجهين جديدين في قافلتنا، إنهما درويشان فقيران عليهما أسمال بالية، ظننتهما لأول وهلة فارسيين، وعلمت بعدئذ أنهما من مدينة «هرات» وقد نذرا أن يحجا إلى مكة [المكرمة] وذلك بالسير على الأقدام إلى حلب ومنها إلى دمشق. أيمكنك - أيها القارئ - أن تتصور المسافة البعيدة التي قدما منها سيراً على الأقدام، مع العلم أنهما يعيشان من صدقات الناس لا أكثر، إنهما يدعوان إلى الإعجاب حقًّا!

طريق أم الرؤوس المحاذية للفرات

في ١٨ تشرين الثاني طويت الخيام وبدأ الرحيل. وبعد مسيرة ساعتين ونصف توقفت القافلة على مسافة قليلة من «شيخ محمد» المار

(١) كتبها «بتوجة» وأظنها خطأ مطبعي.

ذكره، بالقرب من قناة متفرعة من الفرات وتقوم على ضفاف هذه القناة أضرحة عديدة للقوم.

في اليوم الثاني وهو ١٩ منه بقينا في نفس المحطة وذلك لوقوع عيد الفطر (بيرم) فاحتفل به العرب على طريقتهم الخاصة وذلك بإطلاق عيارات نارية من بنادقهم. وفي الصباح الباكر تجمعوا في موقع عام لإقامة صلاة العيد، فوقف إمام القافلة في مقدمة المصلين وقام حامل البيرق (البيرقدار) إلى جانبه، وكان نسيم الصباح يهز برفق علم القافلة.

وعندما انتهت الصلاة نهضوا كلهم بابتهاج فكنت لا ترى غير العناق وتبادل التهاني بينهم، وكانوا في ذلك اليوم قد لبسوا أفخر ما عندهم من ثياب. لا بل زينوا جمالهم أيضاً!

وبعد أن أتموا مراسيم الصلاة والتهاني توجهوا نحوي لإلقاء السلام وللتعبير عن سرورهم لاشتراكي بأفراحهم. هذه الزيارة وهذه التهاني كلفتني عدداً كبيراً من المناديل المزركشة ولا أقل من خمسين غرشاً وزعتها على الرؤساء وأتباعهم كعيديات.

في ٢٠ منه استأنفنا السير، فانتقلت القافلة إلى منطقة «الحويش» فنصبنا خيامنا في وسط قطعان ماشية تعود إلى عرب الدليم فهي ترعى في أرض سهلة مليئة بالأعشاب. استغرقت مسيرة تلك المسافة نحو أربع ساعات وفي طريقنا تركنا إلى يسارنا سلسلة من المرتفعات تمتد لتصل إلى الفرات الذي يقطع بخط منحرف جدول «بندجية» Penededje الصغير فيكون عند النهر وادي «صعيبة» حيث توجد منابع النفط.

في اليوم التالي توقفنا عند ذلك الجدول بعد أن سرنا ساعتين من الزمن تارة على أرض رملية رطبة، وتارة أخرى في ممرات رخوة أو صخرية.

استغرقت المسافة التي قطعناها في ٢٢ منه نحو خمس ساعات، ثم

توقفنا عند الفرات بعد أن تركنا إلى يسار الطريق قبتين يطلق عليهما **«بنات البان»** . وبعد ذلك بقليل رأينا أنفسنا وسط إحدى قبائل العنزة التي كانت تتهيأ للرحيل لتغيير سكنها. لقد كانت ماشيتها قد بدأت الرحيل وكذلك أمتعة الناس. لكن ظهور قافلتنا المفاجيء أوقف مسيرتهم. فقد أسرع الجميع: الرجال والنساء والأطفال على السواء فاصطفوا على الطريق لإلقاء نظرة علينا ونحن نسير في وسطهم. ومما جذب أنظارهم بصورة خاصة منظر التختروان، فظنوا أنّ هذه المحفة تحمل في داخلها أحد السلاطين فاشتاقوا لرؤية من فيها، واقتربوا إليها وقلبوا الستارة الحمراء المتدلية منها!..

لقد مر شهر بالضبط منذ أن بارحنا بغداد، والآن وصلنا بالكاد إلى ضفاف الفرات.

يروى عن سيدنا موسى [عليه السلام] أنه قاد شعبه في البرية أربعين سنة[١] وكان يقدم له المن السماوي[٢]، وبدعائه كانت عيون الماء الصافي تتفجر فيرتوي الشعب منها[٣]. أما قائد قافلتنا الشيخ منصور فما كان باستطاعته أن يقدم لنا غير شاة واحدة كل عشرة أيام، ويسقينا ماء عكراً وفاسداً.

نهر الفرات

وصف هيت - ملاحظات عن سكانها

ها قد وصلنا أخيراً إلى نهر الفرات، وهذه هي المرة الثالثة التي أرى

---

(١) سفر العدد ١٤: ٣٣.

(٢) سفر الخروج ١٦: ١٤

(٣) سفر الخروج ١٧: ٦

فيها هذا النهر الشهير جدًّا في التاريخ القديم... ما أروعه! وما أجمل الانطباع الذي يتركه في النفس! كم من الذكريات تمر في خاطر السائح عندما يقف عند ضفافه متأملاً...

ماء الفرات خفيف جدًّا، لذيذ الطعم؛ يظهر للوهلة الأولى عكراً رغم أنه لا يتعرض لموجات تحركه كما يحدث في الأنهار الكبيرة الأخرى. إنّ مجراه أمام هيت أقل اتساعاً مما هو أمام بيره جك حيث عبرته مرتين من قبل. ومنظره هنا يبعث الفرح في النفس خاصة لأنّ الأراضي المجاورة مزروعة. إنّ العرب يكنون لهذا النهر شعوراً من التكريم أشبه ما يكون بتكريم الهندوس لنهر الكانج[١].

نأتي الآن إلى ذكر عبورنا النهر وموضع نزولنا على ضفة النهر الغربية أسفل هيت التي تمتد فوق تلّة طويلة. من هذا الموقع أكتب هذه الأسطر ويمتد أمامي منظر رائع يستحق أن يكون موضوعاً للوحة فنية ناجحة.

كان لا بد من خمس ساعات من عمل مضنٍ لكي ننقل الأمتعة، وفي الواقع لم نستطع إلا نقل نصف الأمتعة لا غير، وبقي النصف الآخر مع الجمال في الضفة المقابلة. لقد عبرت مع عائلتي، رغم أنّ ريحاً قوية هبت علينا أثناء العبور، لكن العبور تمّ أخيراً بنجاح والحمد لله إذ هطلت علينا أمطار غزيرة فكسرت من حدة الريح.

إنّ هيت - كما قلت - تتوج مرتفعاً يسيطر على النهر من جهة الشامية، بحيث تؤلف بيوتها منظراً جميلاً أشبه ما يكون بمدرج الملعب، وعددها نحو ستمائة بيت مشيدة كلها بالحجر والجص، والبلدة محاطة من طرف البادية بسور شبه دائري تصل نهايته إلى ضفة النهر[٢].

---

(١) لقد بالغ صاحبنا من حيث يدري أو لا يدري، فالهندوس يقدسون نهر الكانج، أما نحن فنعبد الله ونحمده على مواهبه لنا، ومن جملة عطاياه المياه والأنهار.

(٢) الحسني: - العراق قديماً وحديثاً، ط ١ - ١٩٧١، ص ٢٦٩؛ ابراهيم حلمي: هيت =



منظر بلدة هيت (عن تخطيط للرحالة روسو)

نظراً إلى موقع هذه البلدة، فهي معرضة لتحرش الوهابيين. وتظهر لي أنها قديمة جدًّا، فمن منظر الأكوام العديدة من الخرائب التي تشاهد في أطرافها، وطريقة توزيعها يدل على أنها تقوم مكان مدينة واسعة جدًّا لم يبق منها اليوم غير القلعة التي هي هيت نفسها. وحسب التقليد المحلي فإنّ سكانها القدماء كانوا يهوداً، وأنا شخصيًّا أتفق مع هذا القول، لأنّ كتب التاريخ تقول إنّ معظم مدن الجزيرة العربية كانت قبل الإسلام مأهولة باليهود المسبيين الذين كانوا قد تكاثروا عدداً، ونمت ثرواتهم بحيث شكلوا عائقاً أمام تقدم الإسلام الناشيء، ولم تخضع هيت للسيطرة الإسلامية إلا في زمن الخليفة عمر إذ في عهده جرى فتح العراقين وسوريا ومصر وبلاد فارس[1].

= ومعادنها، مجلة لغة العرب ١ (١٩١٢) ص ٢٤٩ وما بعدها، ٣٤٨ وما يليها..

(١) أرى أنّ الرومان والفرس تبادلوا السيطرة على هذه المدينة نظراً لموقعها المهم جدًّا للمرور وللتزود بالمؤون، يؤيد قولي العدد الكبير من المسكوكات العائدة إلى الطرفين التي استطعت الحصول عليها في البلدة. (هامش للمؤلف).

أمام نظري الآن الخارطة التي رسمها دانفيل[1]، وألاحظ أنّ هذا الجغرافي وضع هيت في إحدى دورات الفرات الصغيرة، في المكان الذي كانت تقوم عليه كوناكسا[2] Cunaxa القديمة حيث جرت إحدى معارك حملة العشرة آلاف ضد أرتحشتا Artaxerxes وكانت معركة حاسمة اندحر فيها كورش الأصغر الذي أعلن العصيان على أخيه مدفوعاً بروح الطموح الأعمى. والمعروف أنّ كنوز هذا العاهل التعيس ورفيقته اسبازيا الشهيرة سقطت كلها بيد المنتصر، وإنّ الجيش الإغريقي الذي حارب معه أتم انسحابه بقيادة زينيفون، فجعل من هذا الانسحاب الجميل عملاً مخلداً.

أما حالة هيت من الداخل فهي بسيطة وتعكس العادات البدوية الخشنة السائدة في الصحراء، لكن هناك بعض الدكاكين وثلاث أو أربع محلات لإنتاج الكتان والأقمشة القطنية، ومحلات أخرى لبيع المواد الغذائية أي المطاعم، وفيها حمام واحد وجامع واحد مع مئذنة.

تنتج تلك الأراضي مختلف الحبوب كالحنطة والشعير والشيلم[3] والسمسم والحمص والقطن والبطيخ والرمان، ومن التمور أجودها.

يلبس الناس هنا الزي العربي ويمتهنون الزراعة والتجارة خاصة بمحاصيل أرضهم، ويتاجرون بالكلس والملح والكبريت والقير الذي يجمعونه بكميات كبيرة عند حافات الفرات ويذهبون به لبيعه في

(١) قدم دانفيل إلى العراق وكتب عنه سنة ١٧٧٩.

(٢) كوناكسا جوار مدينة الأنبار قرب قرية الصقلاوية على بعد حوالي ٦ كيلومترات جنوب صدر الصقلاوي الحالي (قاله أحمد سوسة) تنظر حملة العشرة آلاف، ترجمة يعقوب افرام منصور، ص ٣٧٣.

(٣) الشيلم من النباتات العلفية أو هو نبات الزوان يكون مع الحنطة. (المنجد)

المسيب والفلوجة والحلة وغيرها. أو ينحدرون في الفرات بسفن كبيرة مسطحة مطلية بالقار.

يتم صنع أكثر من ألف قارب من هذا النوع سنويًّا، وتجلب الأخشاب الضرورية لصنعه من غابات [دير] الزور Zour إذ ترمى في النهر فتطفو وتنحدر مع الفرات حتى تصل إلى هنا.

يوجد في هيت اكار[١] عام (ضامن) بيده الأمر والنهي بتفويض من باشا بغداد، لقاء مبلغ من المال يقدمه له كضمان مقداره عشرة آلاف قرش. لكن الوارد يفوق بالطبع بكثير هذا المبلغ نظراً لخصوبة الأرض التي تدعو إلى العجب. وهؤلاء الناس المساكين يخضعون إلى الإذلال المستمر دوماً ويوجد بينهم نحو عشرين بيتاً يهوديًّا، هؤلاء عوض أن يكونوا عرضة للإهانة والبغض كما يحدث لهم في الأماكن الأخرى يتمتعون هنا بكل حقوق الطبقة البورجوازية، يمارسون عباداتهم بحرية، لأنّ السكان المسلمين اختبروا مواقفهم الشجاعة أكثر من مرة، ولذلك ينظرون إليهم نظرة مواطنين مفيدين، يؤكد الناس هنا أنهم قاتلوا بشجاعة مع مواطنيهم الآخرين عندما شن الوهابيون مؤخراً غارة على هيت فأعادوهم القهقرى واستولوا على راية من راياتهم التي احتفظوا بها ومنحوا امتياز عرضها في محلتهم كل يوم سبت ذكرى موقفهم الشجاع الذي كللهم بالأمجاد، هؤلاء اليهود يختلفون عن اليهود الآخرين من حيث بعض الاعتقادات، فهم يرفضون التلموذ[٢] ولا يلتزمون إلا بكتب

---

(١) أكّار بمعنى ضامن أو ملتزم (ج: أكرة وأكارون: الحراث) المنجد.

(٢) التلموذ يعني التعليم، هو أهم كتب اليهود بعد الكتاب المقدس. وهو قسمان: الميشنا: أي التقاليد الشفهية المتوارثة بين علماء الناموس وغمارا وهو شرح القسم الأول. وهناك التلموذ الفلسطيني والتلموذ البابلي وهذا أقدم عهداً وأعظم شأناً.

التوراة[١] فيطبقون التعاليم الواردة فيها حرفيًّا بما يخص الوصايا. ويزعمون أنهم يرجعون إلى قبيلة بني مكية Mekie بينما يطلقون على اليهود الآخرين اسم بني مشني Mechne ولهذا السبب لا يختلطون بهم أبداً بل ينظرون إليهم كالخوارج.

إنّ كلمة مكية كانت تعني بالأصل نص التوراة النقي، وهذا يحملني على الاعتقاد أنّ هؤلاء من نحلة القرائين المنحدرة من فرقة الصدوقيين القدماء الذين لا يزال بعضهم عائشاً في بعض أرجاء أوروبا وآسيا، وهم معروفون عند القاصي والداني بتزمتهم ورفضهم لكل التقاليد والتزامهم الأعمى بالشريعة المكتوبة[٢].

إنّ كلمة «الميشنا» تشير إلى القسم الأول من التلمود المعروف عندنا باسم «ميسنا»، وأما القسم الثاني سيطلق عليه عندنا اسم «جناري»، ومن هنا يلاحظ أنّ الإسم الأول وكذلك الثاني يشيران إلى ما نحن بصدده أي إلى الطريقتين القائمتين. فالموجودون من بني مكية أو القرايبط [القرائيين] في هذه البلدان استطاعوا بطريقة عجيبة التحلل من شريعتهم الدينية القديمة، لأنّ التعاليم التي يتمسكون بها اليوم هي خليط من المعتقدات والأساطير الدينية الغريبة. أما شيخهم الكبير فيقيم في دمشق ولهم هناك مؤسسات عديدة. وإذا نشأ بينهم خلاف يكلفون عندئذٍ أحد معلميهم ليلتجي إلى الشيخ الكبير لمعرفة قراره.

يضع الجغرافيون مدينة هيت على خط العرض ٣٣,٢٠ وخط الطول ٦٠,٣٠؛ وهي - أي هيت - النقطة التي تجتمع فيها القوافل. ولكي تعبر القافلة نهر الفرات تستأجر القوارب، وتدفع لصاحب القارب مبلغاً قدره ٨/١ قرشاً عن الحمل الواحد [اظنه يقول: قرشاً وثمن القرش].

---

(١) التوراة هنا تشير إلى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم فقط.

(٢) يوسف غنيمة: نزهة المشتاق ص ١٢٤

إنّ أهل هيت هم رجال عمل مسالمون، ولكنهم يتصفون بفضول مزعج ووقح، فإنّ خيامنا كانت طيلة النهار عرضة للهجوم المستمر من قبل شراذم العامة التي كانت تريد أن تكتشف كيف يكون الفرنجة.

كما كان علينا أن نتحمل أمراً آخر مزعجاً وهو رائحة القير الفاسدة المنبعثة من عملية إذابته عند حافة النهر من أجل طلاء القوارب، فترى هياكل هذه القوارب متناثرة على الرمال وتحيط بنا من كل الجهات.

تقدم أطراف المدينة منظراً جميلاً للبساتين العديدة المتناثرة والقبور القديمة لرجال معروفين استشهدوا أمام الأسوار... تجد فيها وفي «جبيلة» وهي قصبة عربية كبيرة تبعد عن هيت ثلاثة فراسخ لا أكثر من جهة الغرب عدداً كبيراً من الماشية ومراعي فاخرة وأفراساً رائعة تقدر الواحدة منها حتى أربعة آلاف قرش.

لقد حبت الطبيعة هيت بميزات عديدة، ولو كانت بأيد مهتمة وقادرة على تجميلها بالأعمال والصناعة فإنها ستتحول من غير شك إلى أهم موقع للتجارة وللعمليات العسكرية أيضاً. أما عن مناخها فهي تتمتع بهواء سليم، ويشرب سكانها أحسن ماء في العالم ولهذا السبب فإنّ هيت خالية من الأوبئة والأمراض الموسمية المنتشرة بكثرة في المدن الأخرى.

يوميات ٢٤ تشرين الثاني

هيت وسكانها - جماعة الوهابيين

لقد توقعت بأنّ انتظارنا في هيت سيطول وذلك في انتظار بقية القافلة التي لم يستطع بعض أفرادها العبور إلى مساء يوم أمس وبقوا على الضفة الأخرى. حتى بت أعتقد بأننا سوف لن نستطيع استئناف السير إلا بعد وصول البضائع التي غايتها دمشق، وقد قيل عنها أنها تتقدم بسرعة باتجاه الفرات، لذلك لا بد لنا من الصبر والانتظار.

في هذا الصباح كان الشاطيء بأجمل حلله، مقدماً مناظر رائعة ومختلفة كانت تتوالى أمام الأعين: فالعمال كانوا يعملون بنشاط في بناء السفن، وفي الأفق البعيد ترى الرعاة يقودون قطعانهم إلى المراعي وأصواتهم وصراخاتهم تملأ المكان. وهنا خيام القافلة وقد علاها طل الصباح وهي تعرض حافاتها لشعاعات النهار الأولى. وفي موقع آخر تدور نواعير الماء العظيمة الحجم فترفع الماء عالياً لتزود دور البلدة. وأما عن أمواج الفرات فحدث ولا حرج كيف تجري بكبرياء ودلال. وهناك في الأفق أعداد كبيرة من السفن تمخر النهر وهي محملة بالبضائع والجمال فتعبر النهر تدريجيًّا على أصوات أصحابها العكيليين. وإذا نظرنا إلى الأعلى نجد فوق رؤوسنا الهيتيين فوق سطوح بيوتهم ينظرون إلينا وإلى المشاهد التي تجري تحت أقدامهم.

كان هذا المنظر الفتان الذي وقعت عليه عيناي عند استيقاظي من النوم ذلك الصباح. لكن المنظر الجميل المحبب ما عتَّم أن زال عن نظري عندما تصاعدت أبخرة كثيفة صادرة من ذوبان الزفت ملوثة الجو كله. ويقول الهيتيون [سامحهم الله] إنّ هذه الروائح مفيدة للصحة!... أما أنا فقد أصابني من جرائها صداع رهيب لم يبارحني إلى الآن!..

يستعمل القير لا في طلاء القوارب فحسب، بل للبيوت أيضاً إذ ترى معظمها مطلية له من الخارج لكي تقيها الأمطار التي تكثر في هذه الأنحاء، ولولاه لخربت البيوت. كما يطلي الهيتيون بهذه المادة الأباريق والدلاء وآنية أخرى مخصصة لمختلف الاستعمالات.

أراد بعض أكابر هيت زيارتي، لكن أصحابنا العكيل المتعودين على الاستهزاء بهؤلاء الناس المساكين - إذ أنهم يستصغرونهم - قاموا بطردهم بفظاظة، مما آلمني جدًّا. كانوا يلبسون قمصاناً ممزقة وفوقها عباءات بيض، كان في منظرهم مفارقة محزنة. مهما يكن من أمر فعادات

الناس لا تختلف كثيراً عما هي عند العرب الآخرين، لكن تنقصهم الحيوية والإقدام فهذه الصفات لا نجدها إلا عند قوم يتمتعون باستقلال كامل ويعيشون حياة التيه فلا يشغلهم شاغل وهم أبناء الصحراء.

تكلمت سابقاً على اختصاص أهل هيت بإعداد السفن وركوبها والعمل في نهر الفرات. وعليّ أن أضيف بأنهم لا يصعدون أبداً في النهر نحو الشمال، بل يفضلون في هذه الحالة السفر برًّا عندما يريدون الوصول إلى عنة أو إلى المدن الأخرى الواقعة على ضفاف النهر فوق مدينتهم. كما توجد طرق مختلفة تؤدي مباشرة من هيت إلى دجيل، تكريت، بغداد، أو الموصل وإلى بلدة سنجار فماردين... الخ فكل هذه المسافات تتم عن طريق القوافل بواسطة الجمال، ولا تشاهد في هذه الطرق غير الصحراء القاحلة وبعض القبائل الجوالة التي نوهت بأسمائها من قبل.

من واجبي ألا أهمل ذكر بلدة أخرى هي **الحضر** El-Hader التي ذكروا لي أنها تقع في الطريق المؤدية من هيت إلى تكريت. وأظنها المدينة العريقة Hattra التي حاول كل من تراجان وسفيروس[1] تخريبها فباءت محاولتهما بالفشل؛ إنّ هذه المدينة القديمة المشهورة لا تقدم اليوم غير خرائب واقعة على ضفة الثرثار. على بعد مسيرة يومين إلى الشمال الغربي من تكريت. إنّ العرب الذين شاهدوها يؤكدون بأنّ هناك كميات كبيرة من الأحجار وقطعاً عظيمة من أبنية حسنة الهندسة.

وها نحن الآن نتوغل في الشامية، تلك البادية الشاسعة حيث لا يرى المسافر غير الرمال. إنّ مجرد ذكر اسم البادية يثير الخوف والهلع في نفوس أفراد القوافل خوفاً من قطاع الطرق والاغتيالات المستمرة التي

(١) تراجان: امبراطور روماني (٩٨ - ١١٧م) حارب الفرثيين. الكسندر سفيروس امبراطور آخر (٢٠٨ - ٢٣٥م) شن حملات في الشرق.

يلحقها الوهابيون بالمسافرين عبر الصحراء، حتى القوافل المسلحة جيداً والمرافقة بحماية قوية تخشى ذلك.

كنت قد اتفقت مع الشيخ منصور - كما ذكرت سابقاً - وتعهد لي أن نعبر الفرات في منطقة أخرى تقع إلى الشمال من هيت يقال لها الدير حيث توجد مخاضة لعبور النهر في بعض فصول السنة. لكن الرجل حاول إقناعي بأنّ الأمر الذي طلبته منه لا يمكن العمل به بسبب الزيادة الهائلة للماء في تلك الجهة إذ غمرت الأرض وجعلت السير صعباً في المنطقة كلها؛ وكان علي بالطبع أن أصدق قوله وأن أقتنع بكلامه، فعبرت النهر عند هيت، والحقيقة أنّ عرب العكيل يفضلون عادة الطريق المباشر من هذا المكان للتوجه إلى حلب لأنها أقصر الطرق رغم أنها متعبة وأكثر خطورة. ومن جهتي لم ألح على الرجل ليلتزم بوعده تجاهي، ولعلي لم أفعل ذلك لأنه ورد في الاتفاقية المكتوبة بيننا أنه إذا لم أعمل حسب إرشاده وحدث لي مكروه فأنا المسؤول عن نفسي، وهو في حل من تعهده.

وصح فيّ قول الشاعر **سعدي**[1] في إحدى رباعياته:

«لا يحتاج القدر إلّا إلى أصابعه لكي يضيع أحداً
فيضع إصبعين على العينين ليمنع الرؤية.
وإصبعين على الأذنين فلا يسمع،
والخامس على الفم فيسكته»

مهما يكن من أمر فإنّ أهل هيت الذين يقطعون الشامية دوماً، أكدوا لنا أنّ المنطقة آمنة في هذه الفترة أكثر من أي وقت مضى بسبب تراجع الوهابيين الذين لم يعودوا يشاهدون هناك منذ الإخفاقات الأخيرة التي عانوها.

---

(١) سعدي (١١٨٤ - ١٢٩١): أعظم شعراء إيران، ولد في شيراز، مؤلف ديوان كولستان أي حديقة الورد.

● موقف الوهابيين

أي قوم قساة هؤلاء الوهابيون الذين لا أثر للرحمة في نفوسهم. إنهم عطاشى إلى سفك الدماء والاستحواذ على الغنائم، فلا يستثنون أحداً من القتل، بل يذبحون بلا رحمة كل الذين يقعون لسوء حظهم بأيديهم. لكنهم يراعون النساء عادة. وقد علمت أنهم عندما دخلوا كربلاء ونهبوها[1] سنة ١٨٠١ كانوا يدخلون البيوت من أجل أن يفرغوا جام غضبهم على الناس، ويشبعوا جشعهم من الغنائم، لكنهم كانوا يضعون النساء جانباً، وبعد قتلهم للرجال واستيلائهم على كل شيء. كانوا يأمرون النساء بنزع كل ما عليهن من ألبسة، وكانوا في أثناء خلع الألبسة يديرون وجوههم كي لا ينظروا إلى عورات الإناث، ثم يجمعون كل ألبستهن وينصرفون بهدوء. فكيف توفق يا ترى بين الموقف العفيف وبين سفك الدماء بلا رحمة الذي يقوم به هؤلاء اللصوص؟ ألا يظهر في هذا الموضوع ما يدعو إلى الدهشة حقًّا بالنسبة لمن يدرس في طبيعة هؤلاء الناس؟ فيقيّمون موقف الاحترام الذي يلتزمون به تجاه النساء!

إنّ الشرع يأمر النساء بالقعود في البيت، لكنهن في هذه الديار يتمتعن بحرية كبيرة، بشرط المحافظة التامة على الشرف والعفاف. إنه موضوع جدير بالتفكير والتأمل.

وطالما أنا في موضوع الوهابية فلا بأس أن أقدم بعض المعلومات باختصار عن نشأتها وانتشارها. فهذه الحركة التي يسمع عنها الكثير منذ نصف قرن من الزمان أو نحو ذلك. تمّ تأسيسها كما هو معروف من قبل الشيخ محمد المعروف جيداً والمكنى عبد الوهاب، والمتداول بين العامة

---

(١) جرت واقعة كربلاء في ٢٢ نيسان ١٨٠٢، وهو يوافق يوم ١٨ ذي الحجة ١٢١٦ هـ وكان «عيد الغدير». الشيخ رسول الكركوكلي: دوحة الوزراء، ص ٢١٧؛ رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوروبة، عربها د. مصطفى جواد، بغداد (ب. ت) ص ٣٨٤.

أنّ أصله من قبيلة تميم (؟) Tenins في اليمن[1]، وكنت أنا نفسي أعتقد ذلك وتبنيت هذا الرأي في المذكرة التي كتبتها سابقاً حول هذه الحركة، لكن ظهر لي في وقت لاحق أنّ الرجل قد ولد في ضيعة صغيرة اسمها «جماجة» Djemadje التي تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات بين الحلة والرضوانية.

إنّ هذا الرجل الطموح والمقدام فكر بمشروع مهم وحيوي هو إصلاح الأمة العربية العظيمة وذلك من خلال إقامة الشعائر الدينية اعتماداً على تعاليم القرآن. وإذ كان الرجل مدفوعاً من قبل خياله وحماسه فقد انطلق في البلاد فطاف في نجد وسوريا والعراق العربي بحثاً عن سلطة يعتمد على حمايتها له، تساعده من أجل تحقيق أهدافه لكنه باء بالفشل، فقد تعب جدًّا بأسفاره هذه التي لم تأت بفائدة؛ وإذ شعر باليأس من تحقيق التغيير الذي كان يأمله ويخطط له، فقد انسحب إلى «الدرعية» Dreiye وفي نيته التوقف عن حياة التيه التي عاشها في تلك السنوات.

هناك في **«الدرعية»** وجد في شخص الإمام محمد بن سعود[2] حاكمها ذلك السند الذي طالما بحث عنه. فاستقبله باحترام، وتبنى آراءه؛ وسهل على جماعته فهم التعاليم التي كان يطرحها. فالتزم كل واحد منهم أن يدافع بكل الوسائل التي تتاح له عن مبادئ الحركة الجديدة التي اتخذت منذ ذلك الحين اسم الوهابية. وهرع الأعراب من كل فج عميق ليرتموا في أحضانها. ومنذ أن شهرت السلاح واستطاعت استعمال الحديد لتسهيل تقدمها، لم تبق في الجزيرة العربية قبيلة في مأمن على حريتها ومقتنياتها من تهديدات هذه الحركة.

---

(١) ولد في «العيينة» من قرى نجد في عام ١٧٠٣ على قول د. علي الوردي: لمحات اجتماعية ١ : ١٧٨ والزركلي: الأعلام ٤ : ١٣٧ - ١٣٨

(٢) الإمام محمد بن سعود (١٧٢٠ - ١٨٠٣) من أمراء آل سعود وكانت عاصمته الدرعية بنجد كان مغواراً شديداً لا يمل الحروب. الزركلي: الأعلام: ٤ : ١٥٢ - ١٥٣

قرأت خلال مكوثي الأخير في بغداد كتاباً صغيراً عنوانه: «حوار بين عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود» وهو مكتوب بأسلوب مزاجي ومليء بالشحطات الغريبة، وهو يقدم فائدتين في آن واحد، الأولى: أنه يعرّف طبيعة هذين الرجلين المسؤولين؛ والثانية أنه يعطي فكرة واضحة عن عادات الشعب الذي نظماه.

ما أن يتصفح القارئ هذا الكتاب حتى يرى في نص الحوار بين الرجلين فصاحة رجولية مقنعة ومؤثرة جدًّا لأنها صادرة من فم رجل مهووس برغبة المجد[1]، ولذلك يطرح أفكاره أمام صاحبه متحدثاً عن عراقة الأمة العربية في ما مضى وتفوقها وحيويتها، وهل هي قادرة أن تفعل، ثم يريه كيف ضعفت تركية من جهة وإيران من الجهة الأخرى وصارتا غير قادرتين على شيء حتى ولا أمام تقدم الدعوة الجديدة. [أي الدعوة الوهابية].

استطاعت هذه الحركة أو الدعوة في فترة تقدر بنحو ستين سنة أو نحو ذلك أي منذ أن رأت النور، أن تجذب إلى مسارها معظم القبائل البدوية الساكنة في شبه جزيرة العرب الواسعة، وأن تخضعهم لتعاليمها. كانت نشطة وتعمل بسرعة أشبه ما تكون بسرعة السيل الجارف الذي كان يهدد بقوة: سوريا وبين النهرين بخراب قريب تنبه إليه وزراء الباب العالي كما تنبه إليه في المقدمة والي بغداد سليمان باشا الكبير، فرأى ضرورة إيقاف هذا الخراب، فجهز حملة ضده قبل عشرة أعوام وأسند قيادتها إلى كهيته[2] «علي» (الذي صار في وقت لاحق صهره، ثم خلفه في وظيفته) فتوجهت هذه الحملة الخائبة إلى الدرعية، وهناك خمّن قائد الحملة أنه سينتهي أمره هو وجيشه، فانسحب خوفاً من أن يلحق الذل والهوان بسمعة

---

(١) يذكر المؤلف هنا أبياتاً من قصيدة لفولتير.

(٢) كهية أو كهيا (تركية) تحريف كتخدا الفارسية، ويراد بها المعتمد أو معاون الوالي.

الجيش العثماني. وترتفع بالمقابل همة قطاع الطرق وجسارتهم، وهذا زاد من قوتهم ومما ساعد على فرض هيبتهم ذاك النهب المهول الذي قاموا به سنة ١٨٠١ في كربلاء المعروفة أيضاً باسم «الإمام الحسين» ذلك المكان المقدس الذي يحظى بإكرام القزلباش الذين ما زالوا إلى اليوم يبكون ذلك الحادث المؤلم وما ألحقه الوهابيون من انتهاك للمكان المقدس[١].

أما الإمام محمد بن سعود فكانت نهايته مأسوية حدثت بعد سنوات قليلة عندما طعنه رجل فارسي انتقاماً لموت ابنه الذي راح ضحية الهجوم الوهابي على كربلاء، لكن موته لم يوقف مسيرة الدعوة ونشاطها.

أما موت عبد الوهاب فجرى بعد مدة قصيرة من ذلك، وموته بدوره لم يؤثر تأثيراً سلبيًّا على الجماعة، فقد ذاع صيته وعرف عند القاصي والداني بمكانته الروحية العالية وسلطته الدينية العليا.

نزل كلاهما إلى القبر وفي نفسيهما قناعة تامة بأنهما سيحيان من خلال أبنائهما الذين يخلفونهما في أداء دور كل منهما باتفاق أو بالأحرى بإجماع القبيلة.

ورث المسؤول الجديد «**سعود**» عن أبيه القوة والطموح[٢] ولذا لم يتأخر عن السير على خطاه. فأخضع عدداً كبيراً من القبائل التي لم تكن قد دخلت في طريق الوهابية بعد، منها على سبيل المثال: منطقة نجد واليمن وبعض جهات سواحل البحر الأحمر والقسم الغربي من الخليج وجزر البحرين ومناطق أخرى عديدة مهمة في عربستان. كل هذه البلاد

---

(١) عن الحملة انظر: دوحة الوزراء ٢١٦ وما يليها.
العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٦: ١٢٩ وما بعدها.

(٢) سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود (١٧٥٠ - ١٨١٤ م) من أمراء نجد ويعرف بسعود الكبير، وليها يوم اغتيال أبيه بالدرعية، وجند جيشاً كبيراً وسارع على خطى أبيه في غزو البلاد المجاورة. الزركلي: الأعلام ٣: ١٤٢.

خضعت تدريجيًا لسيطرته القوية الثابتة؛ ومما رفعه إلى الذرى استيلاؤه على المدينة [المنورة] ومكة [المكرمة]. هذه ضربة قوية حاول القيام بها في حياة أبيه أكثر من مرة لأنه كان منذ ذلك الحين قائد جيشه، وأخيراً نجح فيها.

وعند استيلاء الوهابيين على مكة والمدينة ألغوا لسنوات عديدة متتالية ذلك العمل الديني المعروف أي الحج السنوي إلى المدينتين المقدستين.

ولم يتوقف الوهابيون عن أعمالهم العدائية في السنوات اللاحقة إذ أنهم هاجموا مناطق البصرة تارة ثم الزبير وبغداد ودمشق وحلب ثم جدة وغيرها. وقطعوا مختلف الطرق في الشامية كلها بالغارات المقيتة المتكررة. وما حدث في هذه السنة أنّ كل غزواتهم باءت بالفشل، فقد هجموا على النجف واندحروا ونالهم الذل أمام السماوة[1]، وتوجهوا إلى مصب شط العرب لكنهم فوجئوا هناك فتفرقوا واضطروا على الانسحاب إلى ديارهم في الصحراء حيث يعدون العدة ويرصون صفوفهم لضربة جديدة لعلها ستكون موجهة إلى البصرة فيقرر مصيرها في هذه المرة، فهي المدينة المهددة الآن بعد أن وجهوا إليها الضربات المرة تلو الأخرى فلم ينالوا منها.

ومنذ أن اعتلى السلطان مصطفى سدة الحكم[2] فإنّ الباب العالي

---

(١) العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٦: ١٦٩.

(٢) كتب المؤلف في الهامش ما يلي: ليتذكر القارئ بأنّ هذه المعلومات كانت كتبت عند شاطئ الفرات في تشرين الثاني ١٨٠٨ أي في زمن لم تكن قد نشبت الثورة الأخيرة في القسطنطينية (اسطنبول) فنصبت على العرش السلطان الحالي محمود. للتفاصيل انظر: محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية بيروت ١٩٧٧، ص ١٩٥.

أخذ - على ما يظهر - بجدية فكرة توجيه ضربة قوية لتأديب هذه القبائل المتوحشة التي بدأ موقفها الهجومي يقلق الدول الأوروبية أيضاً. ولكن، لا بد من القول بأنه طالما لا تقتنع - هذه الدول - بضرورة دفع عرب الجزيرة المتذمرين من سلطة الوهابية فتستعد لمقاومتها بقواها الذاتية، فإنها لن تتوصل أبداً إلى تحقيق مخططها في القضاء على هذه الحركة، فقد ظهر أنّ القوات العثمانية لم تستطع التوغل في بلد قاحل دون أن تعرض نفسها إلى الهلاك عطشاً وجوعاً أضف إلى ذلك المناخ الحارق المزعج.

إني مقتنع تماماً من أنّ باشا بغداد الذي يهمه أكثر من غيره دحر هؤلاء الوهابيين يهتم الآن لكسب العرب الآخرين إلى جانبه، وبهذا الأسلوب الحكيم سيحيط نفسه بمحاربين كثيرين فيستطيع عندئذ أن يشن حرباً مباغتة على العدو. وبينما تتحرك أفواج البدو يحدوها إلى ذلك إغراء الحصول على الغنائم إضافة إلى الرواتب التي تدفع لهم، فينقضون على الدرعية عن طريق الشامية المباشر، بينما تتقدم قوات مساندة مكونة من العثمانيين والأكراد نحو الهدف نفسه عن طريق مجرى النهر إلى ما بعد البصرة قريباً من الخليج حيث لا تبقى غير مسافة قليلة للوصول إلى منطقة الوهابيين، وإذا ما تم تطويقهم ومحاربتهم من جهتين مختلفتين فإنّ ساعتهم الأخيرة ستحل بهم لا محالة فإنّ الدرعية التي هي معقل الوهابية إذا تم الهجوم عليها وإسقاطها وتطهيرها من هؤلاء اللصوص فبالتأكيد أنّ الجماعة لن تقوم من كبوتها ولا تقوم لها قائمة في أي مكان آخر. فالفلول الضعيفة التي سوف تنجو بجلدها بعد النكبة سوف تتفرق في الأقاليم المجاورة، وتعتبر أنفسها ضحية للأحداث وموضع بعض السكان نظراً لانتمائهم إلى «الدعوة» الجديدة.

لكن والي بغداد الحالي[1] له طبيعة متذبذبة، إنه فاتر وغير مكترث

---

(١) إنه كوجك سليمان باشا أو سليمان باشا الصغير (١٨٠٧ - ١٨١٠ م) انظر: دوحة الوزراء، ص ٢٣٩.

للحالة، وهو غير مستعد بقليل من التضحية من أجل تحقيق هدف عظيم كهذا الذي يتطلب شجاعة اتخاذ القرار، وإنفاق الأموال الطائلة. هذا الهدف كان في ذهن عمه علي باشا الشهير الذي خطفته يد المنون وأنزلته إلى قبره لحسن حظ أصحاب «الدعوة» المذكورة.

أقدم الآن بكلمات قليلة بعض الملاحظات عن معتقدات هذه الدعوى [أي: الوهابية] ونظامها وعاداتها، وما إلى ذلك. وأقول قبل كل شيء أني مقتنع بأنّ هذه الدعوة ما هي إلا نسخة من حركة القرامطة التي نشأت في نفس المنطقة، وتحركت بنفس المبادئ والاندفاع والبطش الدموي وعرفت بالتعصب الديني نفسه. وقد وضعت الخلافة في موقف حرج وخطر في العهد العباسي، وكادت تهز أسس الخلافة[1].

والعقيدة الوهابية تستمد أصولها - على حد ادعائها - من القرآن لا غير، فهي تقر بأصل هذا الكتاب الإلهي أي أنه منزل وما محمد ﷺ إلّا أداة بسيطة استخدمها الله القدير لإيصال شريعته إلى البشر.

وانطلاقاً من هذا المبدأ فإنها - أي الحركة الوهابية - تستنكر أي نوع من الإكرام للنبي العربي ولسائر الأنبياء السابقين، وحجتهم في ذلك: إذا كان بإمكان البشر الالتجاء مباشرة إلى الله في حاجاتهم لأنه هو القدير وهو الرب الذي منه مبدأ وجود الخلائق كافة، فلا يجوز والحالة هذه مبدأ الشفاعة من كائنات مثلنا، فالصلوات التي ترفع إلى هؤلاء الأولياء هي إهانة نحو الله ﷻ.

---

(١) ينتمون إلى حمدان بن قرمط الذي ظهر في سواد الكوفة في منتصف القرن الثالث الهجري وانتشر أصحابه في العراق، حاربوا الخلفاء العباسيين، وهجموا على مكة سنة ٣١٧ هـ فقتلوا الحجاج واقتلعوا الحجر الأسود ونقلوه إلى بلاد البحرين، وأعيد الحجر إلى مكانه على زاوية البيت العتيق سنة ٣٣٩ هـ. الطبري: تاريخ ١٠: ٢٤ - ٢٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦: ١٩٤ و٢٠٣.

أما صلواتهم وعباداتهم فهي تعتمد على القرآن لا غير، ولذا فهم يستنكرون التقاليد [أي السنّة] أو الحديث ويلتزمون بالنص الشريف حرفيًّا لا غير، ومنه يستمدون الشرع لحياتهم الاجتماعية.

أما بالنسبة إلى إدارتهم، فهم يميزون بين سلطتين: السلطة الدينية والسلطة الإدارية الزمنية، وهم بذلك يشبهون اليابانيين وشعوب الهند الذي يقيمون لهم ملكين، يختص الواحد بالشؤون الدينية، ويعنى الآخر بالأمور الزمنية.

إنّ أعضاء الجماعة يطيعون رؤساءهم طاعة عمياء رغم كون هؤلاء يعيشون معهم جنباً إلى جنب لا شيء يميزهم عن أفراد الجماعة.

يتميز أفراد الجماعة بالقناعة والاندفاع، أما شغلهم الشاغل فهو تشليح الناس، تراهم راكضين دائماً في البلدان القريبة مخربين فيها وخاطفين! ومما يزيد في شرهم أنهم لا يهابون الموت في منازلتهم لا بل يهرعون إليه بشوق معتبرين الموت ذروة آمالهم إذ ينالون من خلاله إكليل الشهادة.

يعاملون الفرس والأتراك على أنهم كفار وزنادقة لأنهم يجلّون النبي وآله وأصحابه إجلالاً خاصًّا. فيعتقدون أنّ من واجبهم قتلهم حيثما وجدوا، وأن يهدموا مساجدهم. لقد أظهروا مثل هذا التعصب الأعمى بجلاء عندما استولوا على ضريح الإمام الحسين أو عندما دخلوا مكة والمدينة وفي كل الأماكن التي دخلوها بقوة السلاح.

قيل لنا أنهم يعاملون النصارى واليهود بالرحمة، ولكن لا أعلم على أي أساس قيل ذلك، وأنا لا أريد أن أختبر ذلك!

شيخهم الحالي أي رئيسهم هو «سعود» ويسكن في الدرعية التي اعتبرت عاصمتهم منذ عهد أبيه. وهو بموجب الوصف الذي رواه لي

أشخاص عديدون رأوه قالوا عنه أنه ابن اربعين سنة تقريباً. زيتوني البشرة، طويل القامة نوعاً ما، قوي البنية، كتوم في قراراته، مقدام في معاركه. له ثلاث نساء، أحبهن إلى نفسه امرأة سوداء البشرة، عملاقة القامة، رزق منها بأولاد عديدين، المعروفون منهم: ساهر وناصر وكلاهما من الشجعان لأنهما تمرسا منذ نعومة أظفارهما على السرقة والقتل. من عادة سعود حمل زردة[1] تحت ألبسته الخارجية تقيه طعنات الاغتيال، فإنّ موت أبيه المأسوي جعله حذراً كثير الشكوك[2]. لا يخرج من مكانه إلا وهو محاط بحراس سود نحو ستين رجلاً ويتبعه سيافه الخاص الذي ما أن تبدر إشارة من سيده حتى ينهال بالسيف على أعناق ضحايا شكوكه. كما رووا لي عنه أيضاً بأنه رغم تمتعه بسلطة مطلقة لا حدود لها يعرفها جيداً كل المحيطين به من معارف وخدم، ورغم ذلك تجده إنسانيًّا جدًّا في علاقاته مع الناس، وكريماً نحو الفقراء، مكملاً لكل الواجبات التي يفرضها الشرع الإسلامي، مهتمًّا كل الاهتمام بشعبه. إنه يرسل من وقت لآخر مجموعات عديدة من المحاربين للغزو في البلدان التي يعتبرها عدوة فينتشرون فيها كالسيول الجارفة. ويذهب هو بنفسه مرة في السنة على رأس إحدى الغارات وفي هذه الحالة يقود بنفسه أكثر من مئة ألف رجل.

أما مصدر ثروته فهو العشر الذي يستوفيه من كل خيرات جماعته، ومن نهب الغرباء فتتراكم يوماً بعد يوم في عاصمته، وهو لا يعطي شيئاً يستحق الذكر لأتباعه إذ ليس لهم رواتب محددة.

يسود الانسجام التام بين الوهابيين دوماً وتربطهم علاقات مخلصة، ومن هذين العاملين يستمدون السعادة والقوة. إنهم يتصفون بالصرامة والقسوة، متعودون على التعب والحرمان بكل أشكاله. يلبسون الزي

(١) الزردة: هي رداء واقي ينسج من خيوط متينة.

(٢) قتل عبد العزيز بن محمد بن سعود بالدرعية سنة ١٢١٨ هـ.

العربي المعروف ويحملون السلاح كعادة العرب. لهم قرى عديدة، وقطعان لا تعد من الماشية، ويمارسون بعض المهن، يتاجرون في مختلف المدن التركية ولكن تحت أسماء مستعارة. ويضربون نقوداً باسم أميرهم في أكثر من مكان.

أخيراً: إنهم متمسكون بمؤسساتهم تمسكاً كليًّا لا يقبل الطعن. وينبذون كل ما يمت إلى الأجانب بشيء، بحيث يمكن أن يقال عنهم: إنّ أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم لا غاية لها إلا التمسك بعقيدتهم ونشرها، ويتمنون لو أنّ كل أقطار العالم اعتنقت هذه العقيدة.

التوقف عند «جدار» في أطراف هيت
شعوب بلاد العرب القديمة والحديثة

في الخامس والعشرين من تشرين الثاني تحولنا من موقفنا من أجل تركه للقافلة القادمة من دمشق التي وصلت في ذلك اليوم وخيمت إلى الجنوب من هيت بعد أن أمضت الليلة السابقة كلها في عبور النهر. أما موقعنا الجديد فكان على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ من الموقع السابق، وكان على حافة النهر أيضاً في مكان يسمى «جدار».

هنا تظهر أرض الشامية بامتدادها الشاسع ومنظرها القاحل ولونها الباهت، فتحاول عين المسافر، بلا جدوى أن ترى شيئاً يستحق النظر فلا تجد. لقد قامت قديماً في هذه الصحراء مدن مهمة ازدهرت حقبة من الزمن ثم أفلت وبادت ولم تبق منها غير خرائب وآكام.

كانت هذه البلاد في العصور الخالية مأهولة بأمم بدوية محاربة مكونة كما هي اليوم من قبائل تحكم كل واحدة نفسها على طريقتها

الخاصة. ويذكر المؤرخون الأقدمون مثل سترابو وبلين وهيرودوتس[1] بعض أخبارهم، ومنهم: الشنيت والأنباط وأهل نجران والحضرميون والسبأيون والجرينيون والحميريون والأجرنديون Agreens والأرشيت Arcites .

وعلى ما يروى فإنّ - سيدنا - أيوب تحمل المصائب والعذابات القاسية التي أرسلها الله إليه تدريجيًّا ليختبر صبره واستسلامه لإرادته إذ كان عند هؤلاء القوم. وفي ظني إنّ هذه الشعوب هي أقدم الأقوام في تاريخ العالم. لقد كانوا منذ زمن موغل في القدم يعيشون بصورة مستمرة متمسكين بقوانينهم وعاداتهم البدائية من غير الخضوع لنير السيطرة الأجنبية رغم محاولة الفرثيين تارة والرومان تارة أخرى السيطرة عليهم أو إخضاعهم. لا بل فقد حدث العكس كما تفيدنا الحوليات التاريخية بأنّ هؤلاء الأقوام عاثوا فساداً في الأقطار المجاورة فهجموا على الشعوب الساكنة فيها، تارة هنا وتارة هناك! ووضعوا دماءهم تحت تصرف من يدفع أكثر!

كانت طبيعة بلادهم تؤمن لهم سلامتهم، إذ من أجل الوصول إليهم لا بد من قطع الصحارى القاحلة ولذلك فإنّ أعظم الجيوش وأقواها ستلقى مصير التلف من جراء العطش والجوع والحر الشديد، أو من جراء المرشدين الخونة الذين يضيعونهم ما بين الرمال والصخور.

---

(١) سترابو (٥٨ ق.م - ٢٥ ب. م) جغرافي يوناني وضع كتاباً مهمًّا عنوانه «في الجغرافية» وصف فيه الأقطار المعروفة في ذلك العهد ومنها بلاد بابل وآشور.
بلين أوبلينوس: اسم شخصين مهمين، عرف الواحد بالأصغر (٦٢ - ١٢٥؟) له مجموعة رسائل تعد من مصادر التاريخ الروماني. والآخر بلينوس الأكبر أو الأقدم (٢٣ - ٧٩) وله مؤلفات مهمة أيضاً.

هيرودوس أبو التاريخ (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م) مؤرخ ورحالة يوناني شهير زار أقطار عديدة ومنها بلاد ما بين النهرين وكتب عنها.

هناك نقودٌ رومانية جرى ضربها تكريماً لتريانوس أو سيفيروس[1] تظهر أنهما أخضعا العرب. لكن الواقع أنّ تريانوس لم يستطع البتة أن يسيطر على عاصمة النجرانيين، وأما الثاني فقد وجد نفسه متروكاً من جيشه الذي أهلكته مشقة السير فرفض القتال وأجبر الأمبراطور على العودة إلى بلاده. مهما يكن من أمر فإنّ تريانوس المذكور أحب أن يترك آثاراً تخلد عملياته العسكرية الكبيرى، من ذلك الطريق الملكي الذي يؤدي إلى قطيسفون[2] الذي لا تزال بعض آثاره شاخصة.

أما بخصوص أورليانوس فهو لم يستطع السيطرة على السكان واقتصرت حملته على إخضاع زنوبيا[3] المسكينة التي خذلها حلفاؤها، وعلى تدمير مدينة تدمر. فهذه المدينة رغم أنها كانت واسعة وقوية لكنها لم تكن تسيطر إلا على جزء من البلاد ولم تستطع أن تسيطر على قبائل البدو المنتشرة في أرجاء إقليم تدمر.

تدمر هذه العاصمة الشهيرة، المنفصلة عن بقية العالم بالفيافي الواسعة، كانت في حقبة من الزمن على شيء عظيم من السعة والنشاط البشري. أما ما تبقى منها اليوم فإنه يقدم مثالاً مؤثراً للمصير العابر الذي يحل بأعظم الدول. إنّ كل السياح الذين شاهدوا آثار هذه المدينة الشامخة تكلموا عنها بإعجاب وحماس. وهذه الآثار المسماة عندنا باسم «بالميرا»[4] يسميها العرب «تدمر» ونحن نقرأ في الكتاب المقدس

---

(١) الإسكندر - سيفيريوس: امبراطور روماني (٢٠٨ - ٢٣٥ م). تريانوس أو تراجانوس: من أباطرة روما (٩٨ - ١١٧ م) حارب الفرثيين، ترك آثاراً معمارية فخمة. اضطهد المسيحيين.

(٢) قطيسفون أو طيسفون: هي المعروفة باسم المدائن عند سلمان باك الحالية (ياقوت: معجم البلدان: ٣: ٥٧٠).

(٣) زنوبيا: سبق أن نوهنا بها، انظر الهامش ٣٥.

(٤) بالميرا: تعني مدينة النخيل لما كان يكتنفها من أشجار النخيل، انظر (٢ أخبار ٨: ٤).

أنّ سليمان شيد تدمر، وهذه التشابه بالأسماء ليس قاطعاً ويؤمل أن يتوصل الباحثون إلى معرفة أولية هذه المدينة المهمة الضائعة في وسط القفار.

ولنعد الآن إلى موضوع العرب، فهم لا يزالون الآن كما كانوا دوماً رجال القفار، من الصعب السيطرة عليهم، يفضلون الهدوء والاستقرار في الصحراء على السكنى في المدن حيث لا يجدون الراحة ولا السعادة.

إنّ شيوخهم الذين يديرون شؤونهم في الواقع ضعفاء، ولذا لا يستطيعون التدخل في الشؤون الخاصة والحرية العامة؛ بل يحاولون أن يفرضوا الطاعة والاحترام من خلال سيرة شخصية لا ظل فيها للعجرفة والقوة وهما صفتان تلازمان عادة الحاكم المستبد. فكل رب عائلة يهتم بالالتزام بالنظام بين ذويه، وتبحث الأمور العامة بحضور شيوخ القبائل وعندئذ يتخذ القرار بشأنها. وليكن معلوماً أنه لا يوجد عندهم بيوت مشيدة نظامية، كما يفتقرون إلى كل التسهيلات التي أوجدها حب الراحة والرفاهية في الحياة المتحضرة.

سقوفهم - على سبيل المثال - ليست سوى قماش منسوج من شعر أسود اللون، خشن الملمس. والأرض فسيحة، والقطعان كثيرة تجهزهم بما يحتاجون إليه من الوسائل الضرورية للعيش، فيكررون دورة حياتهم وتسلياتهم إن وجدت.

إنهم يتفاخرون بأنّ الله منّ عليهم بأربعة أفضال خاصة بهم دون غيرهم من البشر: الكوفيات المخططة عوض التيجان، والخيام عوض البيوت، والرماح عوض الحواجز (المتارس)، والتقاليد البسيطة المتوارثة عوض القوانين، وأخيراً الأباعر عوض العربات.

إنّ كل العرب قد ولدوا من جديد بواسطة [النبي] محمد وتوصلوا بفضله إلى أعلى درجات من العظمة والجد في عهد حلفائه؛ فقد بقوا بعد انقراض الخلافة غارقين في سبات طويل مقيت؛ ذلك لأنّ قبائلهم تمزقت

وتفرقت وافتقرت إلى وسائل وحدتها وإلى الرجال القادرين إلى إعادتهم إلى مجدهم السابق ومنذ ظهور عبد الوهاب ووالد سعود فقد وحدوا كلمتهم في ظل عقيدة متجددة، وقضية مشتركة يدافعون عنها، وفرص يظهرون براعتهم من خلالها. ولذلك شوهدوا وهم يقدمون علامات جديدة لنشاطهم وحيويتهم وشجاعتهم وهكذا يسيرون بخطى ثابتة وسريعة في دروب الفتوحات.

عندما نشاهد شعباً من الشعوب ينتقل من الظل إلى أسمى حالات البطولة، لا بد لنا عندئذ من الإقرار بأنّ هذا الشعب يسعى إلى إحياء بذرة كامنة في أعماقه، وهو ينتظر الفرصة السانحة للبروز لكي يصل إلى نضجه الكامل.

بقيت القافلة مخيمة في «جدار» مدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس، وهو التاسع والعشرون من تشرين الثاني، أعطيت لنا إشارة الاستعداد للرحيل لأنّ قافلة دمشق كانت قد تجمعت، فاستأنفنا السير مع بزوغ الشمس. نحن وقافلة دمشق فإذا بنا قد كونّا مع القافلة الأخرى ما يشبه المدينة المتحركة قوامها ١٢٠٠ جمل وستمائة من الأعراب.

سرنا نحو ثلاث ساعات باتجاه الغرب، ثم نحو الشمال في طرق مختلفة وغير متشابهة فهي تارة مستوية وتارة أخرى صخرية. وتوقفنا في موضع قاحل وحجري يقال له «سعيدية» Sahiedie قريب من الفرات، وفوق هذا المكان نجد جزيرة «أبو غيث» Abougaite التي تقسم النهر إلى مجريين محاطين بالنخيل، والجزيرة المذكورة خالية من السكان.

وخلال سيرنا بين الصخور لاحظت كمية من روث الغزلان ورفعنا أنظارنا فإذا بقطعان الغزلان تقفز بعيداً، إنّ مخلفات هذه الحيوانات لها خاصية عطر المسك وذلك لتناولها النباتات العطرية، ويستفيد العرب من

ذلك بصنع أنواع من العطور، ويستعملونها أحياناً للتدخين في غلايينهم[1].

لقد مارست كثيراً صيد الغزلان من أجل التسلية. أما سكان الصحراء فإنهم يمسكون الغزلان عادة وهي حيّة، أو يقتلونها وهي نائمة أو بطريقة أخرى إذ يطاردون الحيوانات وهم على أفراسهم السريعة بينما تلحقهم الكلاب السلوقية وتطاردهم الصقور المدربة. وتقوم قبيلة الصلبة بمجزرة رهيبة في قطعان الغزلان لأنهم يتناولون لحومها ويتخذون من جلودها لباساً. إنّ الصلبة هم حثالة البدو، ويحتقرونهم جدًّا ولا يتصلون بهم أبداً. إنهم صغار القامة، ضعفاء البنية، سيئو التكوين، لهم سيماء متوحشة، يتسلحون عادة بالبندقية أم الفتيلة. ويسكنون في متاهات الصحراء بعيداً عن كل سكن بشري. هم الأعراب الوحيدون الذين يمتطون الحمير وليس لهم حيوانات أخرى كالخيول والأغنام.

كانت هذه القبيلة كبيرة العدد في السابق، ولكن حدث قبل سنوات قليلة أنها أرادت أن تقسم الصحراء على قبائلها مما غاظ الوهابيين فهجموا عليهم وفرقوهم شذر مذر فلم يبق منهم اليوم إلا القليل. وداخلهم الخوف وعدم الثقة بالآخرين فانطووا على أنفسهم يرفضون الاختلاط بغيرهم.

في الوقت الذي أقمنا فيه خيامنا، وإذ كنت أتبادل أطراف الكلام مع منصور ومع بعض أعراب العكيل. اقترب منا بدوي فقير مغطى بأسمال رثة طالباً المساعدة، ولكي يثير عطفنا كشف عن كتفه الممزق والمتآكل على إثر عضة أسد[2] عند حافة الفرات، ولسوء حظه فقد وقع بعد ذلك

---

(١) ذكر الدميري في مجرى كلامه عن الظباء شيئاً من ذلك. انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري، ط. القاهرة - ١٣٥٣ هـ الجزء ٢: ١٤٨.

(٢) يظهر الأسد في آثارنا القديمة في بابل ونينوى وغيرها فقد كان موجوداً في العراق، ثم ينوه بوجوده المؤرخون العراقيون وأصحاب الرحلات من الأجانب.

بأيدي قطاع الطرق فسلبوه في مكان غير بعيد من موقف القافلة. لقد رثيت لحاله فأعطيته بعض المال وشيئاً من الخبز وأما منصور فقد ضحى بعباءته إذا ألبسه إياها. فتركنا الرجل وسار في طريق هيت ليعالج نفسه هناك.

مذكرات ٣٠ تشرين الثاني
جزيرة جبّة[1]

كانت نية رئيس القافلة أن نتجه غرباً لكي نخيم في موقع يطلق عليه اسم «عين الأسد» مما سيبعدنا كثيراً عن الفرات، ولذلك أخذ كل واحد من المسافرين حاجته من الماء إذ ملأ قربه. لكن رجال القافلة البصاصين الذين تقدموا القافلة في اليوم السابق ليتحروا المواقع عادوا في الليل ليحذرونا من عصابة كبيرة من عرب العنزة قد استقرت في طريقنا منذ أيام. ولهذا فمن أجل أن نتحاشى مقابلتهم المزعجة فضلنا تغيير الطريق فسلكنا اتجاه الشمال - الغربي، ثم عرجنا باتجاه الشمال سائرين في الطريق الضيق الذي يؤدي من هيت إلى عنه. وبعد مضي خمس ساعات بطيئة ثقيلة على أرض مليئة بالحجارة، ومن شعب صعبة شائكة وصخرية، عدنا فتوقفنا عند النهر على بعد فرسخ ونصف إلى الجنوب من الجزيرة الجميلة الخصبة المسماة «**جبّة**».

يحيط بهذه الجزيرة سور من الطين الذي يترك انطباعاً بأننا أمام حصن حصين. ويسكن الجزيرة أكثر من مائتي بيت من العرب، يهتمون بزراعة الحنطة والشعير والقطن والسمسم، ومن الأشجار: النخيل والتين والرمان، إضافة إلى البطيخ والرقي.

---

(١) جبة: مدينة تاريخية قديمة في جزيرة وسط الفرات. معجم البلدان ٢: ١٣؛ المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، الرحلة الأولى ١٨.

تقع الجزيرة قريباً من ضفة النهر اليسرى في زاوية منفرجة في مجرى النهر تبدأ من عنه وتمتد بحوالي ستة وعشرين فرسخاً إلى الأعلى، فهو يجري من الشمال إلى الجنوب ثم ينحرف فجأة في هذا المكان باتجاه الشرق.

إنّ سكان «جبّة» لا يكتفون بالزراعة بل يتعاطون التجارة أيضاً بمحاصيل أرضهم إذ يجدون لها سوقاً حسنة، ومكسباً سواء أكان في عنة وهيت أم في بلدان أخرى وقرى «الجزيرة» إنهم أغنياء بالحيوانات، كما إنّ موقعهم في جزيرة مسورة، يضعهم في مكان آمن لا تناله هجمات الوهابيين.

تقدر المسافة بين جبّة وهيت عن طريق البر بنحو عشرة إلى أحد عشر فرسخاً، وهذا الطريق لا يسير باستمرار بمحاذاة الفرات، مع العلم أنّ ضفاف النهر عامرة بالحقول الجيدة المزروعة بالقطن وبأشجار الصفصاف والغرب[1] وهذه أشجار برية تستغل لاستعمالات مختلفة أهمها الفحم. إنّ هذه الأشجار تنمو في تلك الأطراف بكثرة.

إنّ جبة وكل الأماكن المأهولة الواقعة على جانبي النهر بين هيت وعنه تخضع كلها لإدارة شخص يقال له ضابط Zabet.

كان المكان الذي خيمنا فيه من أجمل المواقع حقًّا، كان وادياً خصباً جميلاً مليئاً من جهة النهر بأدغال وأشجار كبيرة عالية محتفظة رغم برد الموسم بأوراقها الخضر. وتقوم عن اليسار سلسلة تلال صغيرة وبيوت المزارعين التي تركها أصحابها لأنهم عبروا إلى الضفة المقابلة حيث توجد أعداد من النواعير لسقي الحقول المزروعة.

---

(١) ذكر الرحالة: الصفصاف والغرب يلفظهما العربي.

مرحلة الأول من كانون الأول
محطة حورام

عند بزوغ الشمس نهضت القافلة فطوت خيامها، وسرنا نحو ساعة من الزمن محاذين الفرات وكانت إلى يسارنا سلسلة جبال يطلق عليها اسم الساحلية. هذه السلسلة المقابلة لجزيرة «أبو غيث» تستمر محاذية للنهر ولا تبتعد عنه إلّا بمقدار خمسين خطوة وتنتهي بوادي حورام الذي توقفنا للاستراحة بالقرب منه. ونحو الساعة الثامنة كنا مقابل محدمية Mehdamie (اتكون محمدية؟) وهو موقع صغير خرب تحيطه الأشجار ويقع على ضفة النهر اليسرى. بينما هناك على الضفة المقابلة في الشامية نرى قبة قديمة تسمى «الشيخ علي».

في الساعة الثامنة والنصف رأينا القرية الكبيرة المسماة «الجويني»[1] على الضفة المقابلة على بعد ربع ساعة من جزيرة جبّة. وقد فاجأتنا مزنة قوية من المطر أثناء السير. ثم نصبنا الخيام نحو الساعة العاشرة في موقع منخفض بعض الشيء. كان على يميننا وادي حورام الذي سبق ذكره وهو في هذا المكان واسع جدًّا وعميق. يمتد هذا الوادي من أنحاء دمشق إلى الفرات؛ وتتراكم فيه المياه في موسم الأمطار وتحوله إلى سيل رهيب يجري بقوة حتى يصب في النهر.

استمر المطر مدراراً طيلة النهار وقسماً من الليل مما أجبرنا على البقاء في مكاننا إلى اليوم التالي وهو الثاني من كانون الأول، وقد تبللت خيامنا وأمتعتنا، فعملنا في ذلك النهار من أجل تجفيفها وكان منظر القافلة كأنها قد نجت من الغرق. وكان أحد الخدام قد جمع حطباً

---

(١) قال المؤلف في الهامش أنّ عرب الجويني يمتلكون أعداداً كبيرة من الماعز.

كثيراً في خيمتنا وأشعله فصعدت ألسنة اللهيب وارتفعت الحرارة جدًّا حتى ظننت أنّ الخيمة تحولت إلى كرة منفوخة وسوف تطير بين لحظة وأخرى!

سفرة ٣ كانون الأول
تعداد تقريبي لقبائل عنزة[1]

في اليوم الثالث من كانون الأول، بعد أن سرنا نحو سبع ساعات ونصف على أرض مليئة بالحصى والحجارة، توقفنا أخيراً ونصبنا خيامنا في مكان يفتقر إلى الماء كليًّا لكن زقاقنا كانت مليئة بالماء لحسن الحظ ولذا فبإمكاننا أن نقاوم جفاف الصحراء من غير أن يلحق بنا ضرر.

في أثناء مسيرتنا الأخيرة التقينا بعدد كبير من الأعراب في أماكن متفرقة من الصحراء مع قطعانهم. كانوا أشبه بالنمل المنتشر على سطح الأرض، وهؤلاء الأعراب هم من قبيلة العنزة العظيمة التي سأحاول في الأسطر التالية تعداد القبائل المنتمية إليها دون أن أدعي بتقديم قائمة كاملة لها، خاصة أنّ عدداً من هذه القبائل تفرقت إلى أفخاذ من جراء ابتعاد بعض البيوت أو اضطرارهم لذلك فعبروا الفرات وحلوا في أنحاء الجزيرة مع المحافظة على اسمهم وزيهم الأصلي. ولهذا ستجد في هذا الجدول أسماء تتكرر إذ ورد ذكرها في الجدول الذي وضعته في ٣٠ تشرين الأول.

(١) أسماء القبائل غير واضحة دائماً في اللغة الفرنسية، وحاولنا التوصل إلى الإسم الصحيح بالاستعانة بالمراجع التالية: العزاوي: قبائل العراق، الجزء الأول، بغداد - ١٩٣٧؛ كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٨ (١٩٩٧)؛ المعاضيدي؛ أعالي الفرات في ثلاثة أجزاء.

قبائل قبيلة عنزة

Ouled Seleim	ولد سليمان	He'chan	هيشان
Ouled Aly	ولد علي	Chefeyeh	شفيه
Eubende		Chetewoni	شتيوني
Gueumeusse		Eureufe'	
Mouauch	معيش	Sehehir	سحيحير
Mewadje	مواج	Mehred	محرد
Edjelat	عجيلات	Teyayerie	
Kouevah	كويفه	Mareikhat	مريخات
Abou Hedeibe	أبو حديبي	Mechechede	مشاهدة
Medjaheme	المجاهمة	Djebbar	جبار
Guemadjeme	الكماجمة	Ewouemer	عوامر
Medeyan	مديان	Doue'hy	دويهي
Hassasne	حساسنة	Hemamde	حمامدي
Hemaire	حميري	Guede'be	
Arabe Leddade	لباد	Hedjadje'	حجاجي
Dekil	دخيل	Hessene'	حسني
Chemlan	شملان	Mezeide	مزيد

Bedjaide	البجايدة	Zady	زادي
Mouladje	المولا جي	Gueress'e	
Touemi	تويمي	Kheresse	خريسي
Hesseini	حسيني	Messelikh	مساليخ
Evouedar		Hetymi	الحتيمي
Reb'a	ربعة	Beddel	بدال
Khemede		Seummeleje	
Abouteise	أبو تيس	Edian	عديان
Dehahebe	الذهاهبة	Fequere	فقيري
Mententie		Sequere	
Fegure		Kremaele	كريملي
Mulhem	ملحم	Eubure	
Chemsi	شمسي	Souhele	سهيلة
Eteyfat	عطيفات	Fehede	فهد
Demdjan	الدمجان	Ferede	فريد
Medjebel	مجبل	Wehoube	وهوب
Ebelrous	أبو الروس	Beni Aly	بني علي
Awade	عوادي	Aouf	عوف
Mechete	مشيط	Beni Daher	بني ظاهر

Guerban	غربان	Dekeilan	دخيلان
Douchan	دوشان	Hassen	حسن
Bereyche	البريج	Yd	عيد
Djeblan	الجبلان	Souidan	سويدان
Sehebe	سحاب	Hemdan	حمدان
Mesrouh	مسروح	Djefel	جفل
Beni Salem	بني سالم	Melhonde	ملحود
Meteyr	مطير	Touwese	طويسي
AbouTereibich	أبو طريبش	Hessei	الحبسي
Ewazem	عوازم	Menassebe	مناسب
Ewagem	حواجم	Redjelein	
Ehteim		Senoum	سنوم
Meheyde	مهيدي	Zebin	زبيد؟ زين
Messarebe	مساربة	Tereiche	طرايش
Harbe	حربي	Medjaheme	مجاهمة
Mean	مغان	Keraresse	كرارس
Djehenie	جهينة	Melhed	ملحد
Bely	بلي	Belsan	بلسان
Hewelat	الحولات	Douamere	دوامير

Seleit	سليط	Foueres	فوارس
Hedjadje	حجاج	Guerieban	غريبان
Gubein	قبيني	Demekhe	دمحة
Eedan	عيدان	Kereizi	
Djedea	الجدعة	Henedis	حنيدس
Metchatere	المشاطرة	Arab Djerbe	عرب الجربة
Edjadjere	العجاجرة	Arab chenel	عرب شنيل
Serri	سري	Ruylan	رويلان
Edjalan	عجيلان	Tereyhi	طريحي
Resialin	الرسالين	Emerine	
		Beyache	البياشة

وأضيف إلى هذا الجدول أسماء بعض القبائل الساكنة في الشامية لكنها لا تعتبر جزءاً مكملاً من قبيلة العنزة، أمثال:

Mewaly	موالي	Djendel	جندل
Hedeyle	هديل	Meneyan	منيان
Medeheche	مداهيش	Ghefil	غفل
Gueyar	الكيار	Emir	أمير
Settinie		Ghenyat	الجنيات

Gueramiete		Emour	عمور
Setchen		Mehbache	مهباش
Hudaidun	حديديون	Harbe	حرب
Kenawouch		Hedeil	هديل
Elyssat	العيسات	Erhabe	الرحبة
Djenedat	جنيدات	Abounekte	أبو نكته
Chevonat		Medeyfe	المضايفي
Gouelat	كويلات	Beni Tchetire	
Honeitat	حنيطات	Fedoul	فضول
Hazen	الحازم؟	Touale	طواله
Ehteim		Mesbah	مصباح
Edwan	عدوان	Arabe Mesfoule	
Beni Seukaur		Erian	عريسان
Serdie	السردية	Heteymel Balgha	هتيم البلغة
Zelem	زلم	Djessour	جسور

كل هذه القبائل التي وردت أعلاه هي مستقلة كليًّا ولا علاقة لها بقبائل الوهابيين وإن كانت كلها من العرب البدو الرحل ومن محبي

القتال. وللقارئ أن يتصور قوة تلك القبيلة التي تسيطر اليوم على شبه الجزيرة العربية.

محطة اليوم الرابع من كانون الأول قدوم جماعة من العربان لاستيفاء ضريبة المرور التي يقال لها «الخاوة»

سرنا ثماني ساعات ونصفاً باتجاه الغرب، الجو صافٍ مع شيء من البرد، والأرض التي قطعناها كانت على ما يظهر مرعى الأغنام. وتوقفنا في موقع يقال له «الجاموس» هنا في «الجاموس» توجد برك ماء تكونت من الأمطار فاستفدنا منها كثيراً إذ ملأنا قربنا منها. كنا قد تركنا وراءنا وادي جميلات حيث توجد بحيرة لكنها تجف في موسم الحر اعتباراً من شهر حزيران. وهذه البحيرة واقعة في منتصف الطريق بين مكان خيامنا ووادي حجيلان الذي مررنا به في اليوم السابق وقد تركناه عن يميننا. إنه مضيق مستطيل تحده أكمات صغيرة وصخور تكاد تظهر وكأنها مرتبة بيد الإنسان.

وفي الطريق نشاهد تلة صغيرة ليس بعيداً عن وادي حجيلان باتجاه الشمال - الغربي وتسمى تلة غويدة Guida يتوجها هرم من الأحجار التي جمعها هناك العرب لتكون علامة طريق للمسافرين.

عند المساء قدم عشرون رجلاً من عرب العنزة ليستوفوا الضريبة المعتادة التي تسمى هنا «الخاوة»[1]. ومن الذين حضروا: محمد خريف

(١) استعمل الكلمة المتداولة «الخاوة»:
إنها ثلاثة أرباع القرش عن الجمل الواحد، ما عدا الهدايا التي لا بد من تقديمها للشيوخ كالقهوة أو التبغ أو الألبسة وغير ذلك. تستوفى الخاوة ست مرات متتالية =

وابن الكبين والدوشي، وهذان هما أبناء عم وبنفس الوقت رؤساء قبيلة الفدعان القوية، ولذلك يتمتعان باحترام كبير بين البدو. جرت المجاسبة بينهم وبين منصور، وبعد أن انتهت عادوا فطلبوا علاوة مئة قطعة من فئة العملة المصرية السكية Sequins[1] كضريبة خاصة عن التختروان فقد أثار جشعهم. وبعد أخذ ورد تم الاتفاق بسهولة وسوينا الأمر بالتراضي. الحقيقة أنّ مثل هذا الجشع مع العناد رأيته عند الأكراد أقوى مما هو عند العرب في بين النهرين، واختبرته أكثر من مرة، فهؤلاء لا يتراجعون عن كلمتهم، وإلحاحهم مزعج. وهكذا بدفع ثلاثين قرشاً وقطعتين من فئة العباسي[2] زال كل خلاف وسويت الأمور بالتي أحسن.

كان يوجد بين هذه الجماعة من الأعراب رجل خطير وسفيه لأنه يعمل بصفة كاتب عند أمير الوهابيين، وهو وإن كان في خدمة رئيس جماعة مختلفة وعدو لعرب العنزة لكنه كان يتمتع عند هؤلاء بالاحترام والتقدير بسبب هالة الورع والعلم التي تحيط به. إنه دائم التجوال بين هذه القبيلة والقبائل الأخرى من أجل تهذيب الشبان بتعاليمه البناءة، ويفتي أحياناً بالمشاكل التي تحدث يوميًّا في الصحراء. وعندما حلت ساعة صلاة المغرب أقام هذا الكاتب الصلاة وتلا بصوت عالٍ آيات من القرآن [الكريم]: ولاحظت أن العقيليين تشاغلوا بتضميد جمالهم وترتيب أحمالهم لكي لا يصلّوا خلفه.

= على عدد من القبائل المتفرعة من العنزة، وهي: الفدعان، العجاجرة، المصطفى، ملحم، المساليخ، ولد علي؛ وشيوخهم حسب الترتيب هم: محمد الكبين، ابن حريمس، ابن طيف، المهنا، الراضي، فندج، الطيار (هامش في الأصل).

(١) السكين والزكينو تسميات من أصل عربي «السكة» اختلفت قيمتها على مر الزمن. بدأت في إيطاليا ثم انتشر استعمالها في الشرق.

(٢) عباسي أو العباسية نقد ينسب إلى الشاه عباس الصفوي (ت ١٦٢٩ م) غالبها من فضة ونحاس وقليل منها كان من ذهب. العزاوي: تاريخ النقود العراقية ص ١٧١.

محطة الخامس من كانون الأول
معلومات عن الخيول العربية

مسيرتنا اليوم استغرقت سبع ساعات ونصفاً.

المناخ رائع لكنه بارد.

الاتجاه في أول الأمر نحو الغرب. ثم شمال - غرب.

الأرض التي قطعناها مستوية، تلال قليلة عن اليمين وعن اليسار. وأخيراً توقفنا في وادي الجباب.

تكثر الأرانب في الصحراء، ولحمها صالح للأكل، وهو لذيذ!. قفز أمامنا أثناء السير نحو عشرين منها، فأرسلت لاقتناصها صقراً وكلباً سريعاً كنت قد اشتريته من أحد الأعراب، لكنهما لم يستطيعا إدراكها، بينما عمد بعض أصحابنا العكيل إلى ضرب الأرنب بعصيهم فاصابوا عدداً جيداً منها.

عند منتصف النهار لمحنا عودة بصاصينا الذين أخبرونا عن ظهور عصابة غازية من جرازوس(؟) Ghrazous وادعوا أنهم رأوا معهم «الحجي» المشهور ذلك العملاق الأسود المسؤول عن حماية شيخ الوهابيين. فما أن انتشر هذا الخبر بين المسافرين حتى دب الذعر بينهم، فاستعد الجميع للقتال، فنشرت الأعلام وأشعلت فتائل البنادق، واتخذ الفرسان موقف الدفاع برفع رماحهم واستعدوا للهجوم، وارتفعت أصوات أغاني القتال الحماسية التي يقال لها «الحربية» فرددت الصحراء صداها. والذي حدث أنّ رجال العصابة المغيرة كانت قليلة العدد فلم يتجاسروا على الهجوم ففضلوا الفرار، وعادت الأمور إلى حالها وهدوئها.

نوهت قبل أسطر بالبصاصين، فلا بد أن أقول من يكون هؤلاء. يقال أنهم من عرب الشامية نفسها ولذا فهم يعرفون كل الأماكن فيها. إنهم مرشدون في البوادي، لأنّ العكيل أنفسهم لا يستطيعون السير من غير عونهم، ولذا يتخذون أفراداً منهم بطريقة التعهد ليسيروا أمام القوافل. فتسير في طرق آمنة يتوفر فيها قدر كاف من الماء. يطلق على الواحد من هؤلاء كلمة «دليل» فهم يتمتعون بقوة الرؤية، ويركبون الجمال الخفيفة التي يقال لها «النعمانية» أو «الذلول» ولهذا النوع من الجمال سنام واحد.

هؤلاء الرجال أمناء ومخلصون لمن يدفعون لهم، يحاولون أن يجنبوهم اللقاءات المزعجة مع جامعي الأتاوات عن طريق التحويلات الماهرة في سبل البادية.

إنّ عرب العنزة أصدقاء العكيل العاملين في قافلتنا جاؤوا عندنا في ذلك اليوم وأخذوا يتفحصون خيولنا، فلفت أنظارهم حصان خاص بنا وأعجبهم، وعبروا عن رغبتهم في امتطائه على سبيل التجربة لا أكثر، فنزلت طوعاً إلى رغبتهم، فأعجبوا بسرعته وحسن انقياده ورشاقة حركته إضافة إلى وسامة شكله. فعرضوا عليّ رغبتهم بشرائه، ولكن إذا لم تكن لي نية التخلص منه أبدلت الحديث وطلبت منهم إن كان عندهم فرس جميلة لأشتريها. فقالوا: ما المبلغ الذي تعطينا إياه يا ترى؟ قلت: ألف قرش، فأخذوا بالضحك وقالوا: لن تستطيع تحقيق رغبتك بأقل من ثلاثة آلاف قرش.

الكل يعرفون مدى تعلق العرب بالخيل، يكاد يكون حبهم لها كحبهم لنسائهم! لا يوجد أحد منهم لا يدخل الفرس إلى داخل الخيمة لترقد إلى جانب أفراد العائلة، ويعتني بها صاحبها كاعتنائه بأولاده.

إنّ العرب، كما هو معروف، من بين الأمم كافة، يمتلكون أجمل

الخيول التي يقام لها وزن أكثر من غيرها، وهم يعرفون أكثر وأفضل من غيرهم طريقة ترويضها. ومن أجل اكتساب فكرة عن الخيول والحكم على أصالتها لا بد من التجول في وسط صحرائهم، وتعلم تمييز أنواعها وتقيمها بما تستحق. وقد طاب لأمراء فارس والهند منذ سنوات تكثير هذه الأصائل، كما حاولوا الأمر نفسه عندنا في أوروبا، ويوصون باستمرار لاقتناء أشهر أعراق الخيل العربية.

الخيول العربية بصورة عامة هي رهيفة، لكنها في الوقت نفسه تتحمل الأتعاب والسير الطويل، وهي متناسقة الأعضاء جدًّا، رشيقة ونشطة تتمتع بخفة عالية عند ركضها وذلك لصغر بطنها. آذانها صغيرة وذيولها قصيرة.

هذه هي العلامات المميزة التي من خلالها يتم التعرف عليها. الخيول العربية خالية من العيوب في معظم الحالات، رقيقة الطبع بحيث تتقبل بهدوء ملاطفة الأطفال والنساء وتختلط في البراري مع الحيوانات الأخرى، وتمتطى في معظم الأوقات على جلدها لا غير، وتقاد بالعنان لا أكثر. كما إنها تتحمل العطش، وترتاح إلى حليب الناقة وأضيف شيئاً آخر بأنّ ما يعطي للخيل من طعام هو قليل، ولا تحتاج الخيل العربية إلى حدوة الحديد لأنّ أرض الصحراء رخوة وخالية من الأحجار.

وها أنا أعرض الشروط المطلوبة لكي يقال عن حصان أنه جميل حقًّا: العنق المقوس، أذنان منصبتان، خفيف عند الملمس، رأس صغير نسبيًّا يميل إلى الطول، عينان واسعتان مدورتان، فكان متسعان، منخران مضمومان، بطن غير عريض، أقدام رشيقة، حوافر عريضة وقوية، الصدر عريض، الأرداف ململمة.

عندما يتطرق عرب العنزة إلى الخيل فإنهم يشيدون بميزتين مهمتين عند قولهم: حافظوا وأحبوا الحصان الذي له صدر أسد وأرداف ذئب. أما

الفرس - أي الأنثى - فإنهم يفضلون أن تكون ذات أرداف عريضة مع ارتفاع قليل.

وخلاصة القول أنهم يريدون أن تتجمع في الحصان ثلاث حسنات: جمال الرأس والرقبة والردف. فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في حصان اعتبروه كاملاً. وللعلم فإنّ الشاعر هوراس[1] ردد هذه الأوصاف منذ زمن بعيد!..

إضافة إلى ما ذكرنا، لا بد أن يكون الحصان صغير السن فهذا هو المفضل عندهم. ومن العلامات الخاصة في الحصان:

- نجمتان في ناصيته
- خصلات الشعر
- بقع سود في الحوشب[2]

فالعرب يلتفتون إلى هذه الأمور، ووجودها أو عدم وجودها يؤثر على أسعار الخيل؛ لا بل تعتبر علامات يتشاءم منها العربي.

ومعروف عند الجميع أنّ للعرب عادة الاحتفاظ بهمة عالية بأنساب مختلف أعراق الخيل، ومن عاداتهم أن يصدروا شهادة بحق عراقة الخيل

---

(١) هوراس: شاعر لاتيني شهير، من أبناء المئة الأولى قبل المسيح. له رسالة في الشعر وهجائيات.
وقد وصف امرؤ القيس فرسه فجمع الصفات المحمودة فيه:
له أيطلا ظبي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل
[أيطلا ظبي: خاصرت ظبي لضمورهما، وارخاء سرحان: سرعة ذنبي في لين، وتقريب تتفل: وجري تتفل وهو ولد الذئب] ديوان امرئ القيس ص ١٥٥ [قاله عبد الحميد الرشودي].

(٢) الحوشب: جزء من ساق الحصان فوق الحافر.

ونبلها. وهذا مثال لشهادة حصلت عليها. لعلها تشبع فضول بعض القراء، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال النبي: «ما اجتمعت كلمة أمتي على باطل».

السبب الباعث إلى تحرير هذا الكتاب: نحن الموقعين أدناه، نعلن أمام الله العلي القدير، ونؤكد ونشهد ونقسم بذمتنا وشرفنا، أنّ المهرة الكميت التي في ناصيتها نجمة بيضاء، قد ولدت وفي قدمها الخلفية بقعة بيضاء من فرس نجدية ومن حصان من جنس شويمان السياح، فهي من أصل نبيل من ثلاثة أجيال متتالية. فهي بالحقيقة تجمع كل الصفات الخاصة التي يتحدث عنها النبي بقوله: «بطونها كنز وظهورها عز». واعتماداً على شهادات السلف نؤكد بأنّ المهر موضوع الكلام هي أصيلة كالحليب. ونشهد أيضاً بالقسم عينه بأنها مشهورة بخفتها وبسرعتها في السباق، تتحمل العطش بصبر جميل، متعودة على الأتعاب والسفر الطويل.

وعلى هذا أعطينا هذه الشهادة حسب ما رأينا وعرفنا بأنفسنا.

والله خير الشاهدين»

(تتبع أسماء الشهود).

العرب يحبون الخيل حتى العشق، وقد تركوا مؤلفات عديدة في أصولها وأنسابها وطرق الاعتناء بها، ومعالجتها من أمراضها، وأشهر هذه البحوث كتاب «مبادئ الفروسية» الذي ينسب إلى علي ابن عم

النبي ﷺ وقد حصلت على نسخة منه في حلب، وفي نيتي أن أعمل على ترجمته إلى الفرنسية إذا ما سمحت لي انشغالاتي الكثيرة. قبل نهاية الفصل الأول من السنة القادمة. وبانتظار ذلك، لا أريد أن أنهي هذا الفصل قبل أن أضمنه قائمة بأنساب الخيل الأكثر شهرة في العالم[1].

١. الكحيل [الكحيلة]
٢. جلفي
٣. سيدي
٤. مناكزي
٥. صقلاوي
٦. ديجان
٧. حمداني
٨. ريشان
٩. سويتي
١٠. عبيان
١١. ريبدان
١٢. فريديان
١٣. هبدان
١٤. طويسان
١٥. ودنان [الوذنة]
١٦. شويمان السياح
١٧. مشرف
١٨. أبو عرقوبي

(١) انظر: وديع ياسين التكريتي: مبادئ الفروسية الحديثة، الموصل ١٩٨٤، ص٤٧ وما يليها:
قدري الأرضروملي: الخيل العراب وفضلها على الأنساب العالمية،
العزاوي: قبائل العراق: الجزء الأول، وتختلف الأسماء في جدول الرحالة عما ورد عند هذين الفاضلين: رقم ٣ جلفي سعدة عند الأرضروملي ص ٢٩.
رقم ١١ الربدة عند العزاوي: قبائل ٣٧٥: ١.
رقم ١٦ هي شويمان السواح عند الأرضروملي ص ٢٨.
رقم ١٨ هي أم عركوب أو عرقوب عند العزاوي ص ٣٧٥.
انتصار عبد الجبار: الخيول العربية، مجلة التراث الشعبي ١٤ (١٩٨٣) العدد ١٥ ص ٢١٩ - ٢٣٩.

مرحلة اليوم السادس من كانون الأول

سرنا ثماني ساعات ونصفاً باتجاه الشمال الغربي أولاً، ثم شمال - غرب حالاً وأخيراً باتجاه الشمال مباشرة.

الأرض التي قطعناها مستوية مليئة بنباتات البر كالسرخس والخنشار اليابس. وتشاهد عليه آثار خيام العرب.

الجو ملبد بالغيوم لكنه مقبول.

التوقف في وادي القائم حيث نجد في الشتاء برك ماء المطر.

قتل العرب أثناء السير عدداً غير قليل من الأفاعي بعضها غليظة، وأظن أنها من النوع السام، ونحن نعرف أنّ هذا النوع من الحيات يكثر في بلاد العرب.

وإذ كنا نسير، تركنا إلى يسارنا جبل غور الأستاف وجبل البتيك الواقع على الخط نفسه وفي الجهة المقابلة لهذا الجبل من ناحية الشرق نشاهد قرب النهر أكمتين يقال لهما «هديات».

إنّ المنطقة التي نزلنا بها في هذا اليوم بانت لي لطيفة، فمناظرها جميلة، ومياهها غزيرة. إنه وادي جميل جدًّا يمتد حتى النهر وينتهي بأكمات ترابية يقال لها «القايم» حيث يمكن إلى اليوم مشاهدة منارة قائمة وأكواخ متداعية ليست ذات قيمة.

مرحلة السابع من كانون الأول
مجرى الفرات من الشيخ جابر حتى القرنة

ملاحظات عن الأماكن الواقعة على ضفافه بين عنه وهيت.

انطلق السير واستمر لمدة أربع ساعات ونصف باتجاه الشمال الغربي

أولاً، ثم نحو الشمال مباشرة. كانت الأرض غير مستوية تتخللها تلال تسمى منيات Manyat وأخيراً توقفنا عند الشيخ جابر قرب الفرات[١].

إنّ «**الشيخ جابر**» هو كوخ قديم مشيد بالآجر، فيه قبر رجل يحمل هذا الإسم اتصف بالشجاعة والإقدام فأصبح مهيب الجانب عند العرب وترك بينهم شهرة المحارب الكبير. وتشاهد هناك بقايا خرائب كثيرة تشير إلى حدود بلدة قديمة.

كنا قد اقتربنا من الفرات[٢] وبدأنا نرتوي من مائه اللذيذ الصافي مرة أخرى. وحسب ملاحظاتي عن مجرى هذا النهر، فهو اعتباراً من موقع الشيخ جابر، بل قبله بقليل، وإلى عنه التي تركناها خلفنا، فإنه يجري من الغرب إلى الشرق، ثم يغير مجراه فجأة متجهاً جنوب - شرق ليصل إلى جبه وهيت ويكمل مسيرته المتعرجة باتجاهات مختلفة حتى يصل إلى القرنة فيتحد بمنافسه نهر دجلة.

● عنه

تقع عنه على الضفة اليمنى من الفرات، وهي بلا شك مدينة قديمة جدًّا لأنّ النبي أشعيا[٣] يتحدث عنها كمكان جلس فيه ملوك. لكنها لم تكن كذلك على عهده إذ لم تعد تقدم في ذلك الوقت غير ذكريات حزينة لزمن زاهر قد مضى.

تقع على بعد ٣٣ فرسخاً أو نحو ذلك إلى الشمال من هيت، على

---

(١) تل الجابرية أو الشيخ جابر، المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، المرحلة الأولى ص ٢٦.

(٢) المعاضيدي: أعالي الفرات ١: ص ١٤٠ - ١٤١.

(٣) أشعيا (ق٨ ق.م) أحد أنبياء العهد القديم، مات شهيداً، له نبوءة امتازت بشدة لهجتها وقوة شاعريتها - لعل الرحالة يشير إلى عناتوت (أشعيا ١: ٣٠)

خط العرض و٣٣.٢٣؛ يمكننا أن نصفها بأنها مكونة من شارع طويل لا نهاية له، وتقوم البيوت والأكواخ على جانبيه تتخللها بساتين جميلة. أرض **عنه** خصبة وغنية بالحبوب والأثمار والزيت والقطن، فهي بأديمها الخصب تغذي عدداً كبيراً من الماشية.

تمر بها عادة كل القوافل عندما تريد قطع النهر كما في هيت بواسطة قوارب صغيرة مطلية بالقار.

تخضع «عنه» حالها حال هيت إلى باشا بغداد والذي يحصل على واردات معتبرة منها، وعلى خيول أصيلة، سكان «عنه» نشيطون وأصحاب صناعة. فإلى جانب عملهم في الحقول فإنهم يتعاطون التجارة ويصنعون أنواعاً من الأقمشة القطنية والصوفية. لكنهم أقل شجاعة وإقداماً من أهل هيت فهم لا يستطيعون مقاومة الوهابيين، ولذلك نهبت بيوتهم أكثر من مرة وسرقت محاصيلهم من قبل هؤلاء المهاجمين الشرسين.

على الجانب الأيسر المقابل، وفي النهاية العليا لبلدة «عنه» تقوم بلدة أخرى تسمى **«رواة»** وهي مزدحمة بالسكان، فيها زراعة حسنة من الحنطة والشعير والقطن.

هناك جزيرة صغيرة هي كرابلة Kerabile تقع على بعد فرسخ فوق عنه، يقدر عدد سكانها بستين بيتاً من الفلاحين، وهم يعرفون جيداً كيف يستفيدون من موقعهم.

وعلى مسافة ساعتين إلى الشمال توجد تلال فيها أخربة وتسمى «المشاهدة» وتمتد مع ضفة النهر الغربية، وهي بالتأكيد بقايا مدينة قديمة.

إنّ كل هذه الأماكن المختلفة، الواقعة على ضفتي الفرات، بدءاً من عنه حتى هيت وكذلك جزيرة جبه لا نجد أثراً لها على أية خارطة، وهنا أعطي ثبتاً مختصراً لهذه الأماكن:

١ - **الحبين**: قرية كبيرة على ضفة النهر الشرقية، على بعد ثلاثة فراسخ عن عنه[١].

٢ - **المياديد**: قرية أخرى على الضفة نفسها، على بعد ثلاثة فراسخ ونصف من سابقتها.

٣ - **حبيب المجار**: على الضفة نفسها مع قلعة مشيدة على مرتفع ويزعم العرب أنها مبنية من قبل نمرود.

٤ - **حديثة**: جزيرة صغيرة جميلة، على بعد ستة فراسخ من تلك القلعة، غنية بالقمح ووفرة التمور.

٥ - **بني داهر**: قرية مكونة من نحو مئة أسرة من الفلاحين العرب وتقع على بعد ستة فراسخ من حديثة على الضفة اليسرى[٢].

٦ - **جزيرة آلوس**: إنها خصبة ومأهولة مثل جبة وتقع بين جبة وبني ظاهر (أو بني داهر).

مرحلة الثامن من كانون الأول
جبة وغابة الزور

بعد سير مستمر استغرق سبع ساعات ونصفاً باتجاه محاذٍ لمجرى الفرات، وكانت الأرض التي قطعناها متساوية في أول الأمر وأكثرها رملية، ثم تحولت إلى أرض رخوة اسفنجية مغطاة بأدغال، ثم مشققة

---

(١) المعاضيدي: أعالي الفرات ١: ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٢) لعلها بني داهر: كما في مقالة فرحان أحمد البياتي: حديثة الفرات، التراث الشعبي ١٠ (١٩٧٩) العددان الأول والثاني ص ١٠١.
فرحان الحديثي: تاريخ الحديثة، بغداد ١٩٨٩، ص ٢٣٥.
المعاضيدي: أعالي الفرات: ص ٢٣٠.

من جراء ركود مياه النهر بعد فيضانه. وتوقفنا أخيراً عند قرية مدكوك Medkouk.

كانت القافلتان أي: قافلة حلب وقافلة دمشق تسيران جنباً إلى جنب منذ بدء السير في هذا النهار، ولكن اليوم انفصلتا فأخذت كل واحدة اتجاهاً مختلفاً. فهذه الأخيرة سارت باتجاه الغرب، بينما توجهت قافلتنا نحو مدكوك وهي تلة عالية منعزلة، مررنا بها وتخطيناها بنحو نصف ساعة لنخيم في موقع يقابل جبل كسورية.

وإذ كنا نقطع الفيافي مررنا بالقرب من جبة وهي مفازة ينبت فيها العرعر بكثرة، وتمتد هذه الغابة بمحاذاة النهر. هناك ينزل عادة عرب العنزة يتوجهون إلى هذه المنطقة عبر النهر. ويقع مقابل هذا المكان أي في الضفة الأخرى جبل أردي وفي آخره شكل قبة. قالوا لي عنها أنها قبر ناصر المهنا ابن جشعم الشهير، ويضعه العرب في عداد أصحاب الكرامات.

اعتباراً من «جبة» تبدأ الغابة العظيمة «الزور» التي تمتد على جانبي نهر الفرات حتى تصل إلى البيرة أو بيره جك[1] مما يعطينا امتداداً واسعاً يقدر بنحو تسعين فرسخاً طولاً. أما الأشجار التي تقوم هناك فهي الصفصاف والعرعر والصبار والبلوط.

يسكن هناك في ظلال هذه الأشجار العريقة عدد كبير من القبائل الفلاحية إذ يعيشون هناك حياة مستقلة.

جدير بالذكر بأنّ الطرائد تكثر في هذه المنطقة، وتعيش في هذه الغابة بعض الحيوانات المفترسة من أمثال الأسود والضباع وما إلى ذلك.

---

(١) تجد هذه الجملة في مقالة الأستاذ يعقوب سركيس: قشعم في التاريخ، مباحث عراقية الجزء الأول ص ٩٤.

إنّ سكان الجزيرة، مثل أهل عنه وهيت والمدن الأخرى المجاورة، يحتطبون هنا ما يحتاجون إليه للاستعمالات اليومية، فيرسلون العمال، الذين بعد قطعهم الأشجار يرمونها في النهر الجاري فيحملها ويجري بسرعة مدهشة خاصة في موسم ارتفاع منسوبه.

مرحلة التاسع من كانون الأول
المشاهدة

سير لثماني ساعات باتجاه الشمال - الغربي في أول الأمر، ثم نحو الشمال، وأخيراً باتجاه الغرب مباشرة.

المناخ بارد

الأرض غير متساوية، مليئة بالحصباء.

التوقف عند «وادي الصعب» Wady-el-Souabe وهو وادٍ واسع ومليء ببرك صغيرة متكونة من ماء المطر وقد أفادتنا كثيراً إذ ملأنا القرب التي فرغت منذ اليوم السابق.

يمتد الوادي من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي لينتهي إلى الفرات بالقرب من «الساحلية» وهو بناء قديم قائم على مرتفع.

وقبل أن نتوغل في الصحراء تاركين الفرات نهائيًّا، بعد أن رحلت القافلة قبلنا وقطعت مسافة حسنة، أرى أن أشير باختصار إلى الأماكن الأكثر أهمية الواقعة على ضفتي النهر أو القريبة منه اعتباراً من الدير إلى الشيخ جابر إذ حاذيناه تقريباً آخر مرة. ومن ثم سأقول كلمة عن دوران النهر اعتباراً من هناك ثم المواضع التي يسهل فيها العبور خوضاً وفي أي فصل من فصول السنة يمكن أن يتم ذلك.

بعد «ساحلية» بقليل يبتدئ جبل نصورية، وقد تكلمت عنه، وهو عامر بالغابات وتكثير فيه الطرائد، هناك توجد أنواع مختلفة من طيور القنص أي الجوارح التي يسعى العرب لاصطيادها وهي صغيرة وتكون في شقوق الصخور، ويذهبون بها إلى حلب ودمشق لبيعها، وهناك تمرن على الصيد.

مقابل «ساحلية» تقريباً من جهة بين النهرين تشاهد القصبة الكبيرة «بسايرة» وهي مأهولة بالسكان بقدر هيت، وتقع في الزاوية المتكونة من التقاء الخابور بالفرات إذ في هذه النقطة يصب الخابور بالفرات.

تسكن على ضفاف النهر هنا قبائل كثيرة وكلها فلاحية، وتعيش من خيرات الأرض الوافرة التي يحصلون عليها بسبب حسن المناخ.

وعلى بعد فرسخين إلى فوق البسايرة يدور النهر من جديد، هناك تقع «شريعة الملحم» حيث يعيش عادة فخذ من قبيلة «أبو شعلان».

وبعد ثلاثة فراسخ إلى الشمال من هذا الموضع تقوم «المشاهدة»، وهذا هو المكان الثالث الذي يحمل الإسم نفسه على ضفاف الفرات، وفي ظني أنّ العرب يطلقون هذا الإسم على الأماكن التي تضم رفات أوليائهم الذين ماتوا من أجل الدين، فهم شهداء ومن هنا جاء هذا الإسم[1] البناء قديم وغير مأهول، ويقول العرب رفاق السفر أنه يرجع إلى زمن الخلفاء وأنه مسكن بعض الزهاد المتعبدين.

تقع «الرحبة» بين شريعة الملحم والمشاهدة على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ من الفرات. إنه بناء مشيد تشييداً نظاميًّا ومنظره يشبه الحصن العسكري القديم حيث نشاهد أبنية حسنة على الطراز العربي. لا تزال جدران البناء قائمة، ولا يوجد للبناء غير مدخل واحد. تسكنه حاليًّا

---

(١) هذا التعليق كتبه المؤلف في الهامش وفضلت إدخاله في المتن.

بعض الأسر العربية التي تمتهن الصبغ بالنيل، فيأتي سكان البادية لصبغ أقمشتهم وأصوافهم المعدة لصنع الخيام.

أما بلدة «الدير» الواقعة على بعد سبعة عشر فرسخاً إلى الشمال من «المشاهدة» على ضفة النهر اليمنى فهي منطقة مأهولة بالسكان. ويتردد إليها بصورة مستمرة سكان الجزيرة والشامية لشراء المواد التي يحتاجون إليها.

يضع الجغرافيون في هذا المكان «ثابسوس» القديمة حيث مرّ الإسكندر في طريق عودته من مصر فقد عبر الفرات ومضى ليشن حملته على داريوس، فكانت معركة أربيل الشهيرة[1].

مقابل الدير تقريباً، لكن على الضفة الأخرى تقع قلعة الأفادبي، وهي قصر قديم متهدم وغير مأهول. من هذا المكان يبدأ طريق مباشر يؤدي إلى أورفا.

في نواحي الدير تبدأ سلسلة جبال عالية ممتدة نحو الغرب ويقال لها «الشبيري» وهذه الجبال مليئة بنوع من الأشجار تنتج نوعاً من الصمغ وثمرة صغيرة يسميها العرب «البطم» ويستخرجون منها زيتاً جيداً. وهناك في تلك الجبال يجدون حيوانات مختلفة كالنعام والضباع، ومن الطيور أنواعاً كثيرة.

وفي النقطة التي تنتهي فيها السلسلة الجبلية، وفي وسط سهل طيني نجد بنايتين مشيدتين بطراز غريب يقال لهما «قصور الأخوين» وتقعان إلى يمين طريق القافلة لقد زرتهما وسأتحدث عنهما بعد قليل.

وفي الجبال المذكورة، وعلى الطريق المؤدية من الدير إلى قصور

---

(١) الإسكندر الكبير المقدوني (٣٥٦ ق.م - ٣٢٣ ق.م) تتلمذ على يد الفيلسوف أرسطو، وهو المعروف بذي القرنين.

الأخوين، قالوا لي بوجود كهريز كبير يقال له «دبية» محفور في الصخر وتتجمع فيه مياه الأمطار في الشتاء.

لنعد الآن إلى الفرات:

من بيره جك الواقعة على بعد خمسة وثلاثين فرسخاً إلى الشمال الشرقي من حلب، فإنّ نهر الفرات يجري متوجهاً إلى الجنوب، ثم جنوب - غرب حتى منطقة الفحل إذ هناك يمضي بعطفة كبيرة ومفاجئة فيتجه غفلة باتجاه الجنوب الشرقي ويحافظ على هذا الاتجاه مسافة أربعين فرسخاً، وعند وصوله إلى الدير يعود مرة أخرى فيبدل اتجاهه إذ يجري جنوباً نحو «شيخ جابر» ويبدأ كما قلت سابقاً بين مسافة وأخرى فيغير توجهاته.

تبدأ مياه الفرات بالازدياد اعتباراً من الأيام الأولى من تشرين الثاني وتكثر تدريجيًّا إلى اليوم الخامس والعشرين من آذار لا بل حتى الثلاثين منه، وهو آخر موسم الفيضان. ثم تنحسر تدريجيًّا لتعود إلى المستوى الطبيعي في آخر شهر أيار، وعندما يهبط مستوى ماء النهر فبالإمكان خوض النهر وعبوره في مواضع عديدة، منها:

١ - على بعد ١٢ فرسخاً جنوب هيت مقابل قبور العبدان.

٢ - على بعد ١٤ فرسخاً إلى الشمال من هيت عند الجهجهية.

٣ - وادي القاسم على بعد نصف فرسخ إلى الشمال من عنه.

٤ - في الدير.

٥ - فوق الدير بفراسخ قليلة عند عرب البقارة.

فكانت قبائل الشام تَعاني مَعاناة كثيراً من قبائل بذال أو البذاذلة، والسهول وكلهما من بنو كِلاب، وقد حاربوا اليهود في بلاد القدس وهؤلاء القبيلتان شريفتان نسَباً من نسل عربياً أصيل.

مرحلة الحادي عشر من كانون الأول[1]
الشامية

سرنا تسع ساعات، وكان الاتجاه في أول الأمر شمال - غرب، ثم نحو الغرب، ومن جديد شمال غرب. الأرض التي قطعناها كانت وعرة مليئة بنبات الأفسنيتن. توقفنا بعد جرب الغنيم عند أرض يابسة وجرداء.

إنّ جرب الغنيم الذي تركناه لاحقاً هو بئر ماء أجاج يتوقف العرب عندها لسقي دوابهم إنه يبتعد عن الفرات نحو خمسة عشر فرسخاً، وعندما تصل القوافل إليها فهي عندئذ تكون على مسافة بعيدة من الفرات إذ لا تخاطر القوافل بالابتعاد عنها كثيراً.

جدير بالذكر أنه عند المرور بهذا الموضع فمن النادر جدًّا ألا تفاجأ القوافل بلقاء مزعج أو في الأقل أن تسمع إنذاراً مقلقاً! ونحن بدورنا لم نستثن من ذلك، إذ قبل وصولنا إلى هناك إذا برجل بدوي راجل يكاد يكون عرياناً وقد لوحته الشمس حتى أحرقته، تقدم إلينا ليخبرنا بأنّ عصابة جلاس قد بلغها خبر مرورنا فاستعدت لملاقاتنا فكمنت لنا في الطريق لتهاجمنا.

أفادنا هذا الخبر كثيراً فاتخذنا موقع الدفاع وما مرت لحظات قليلة حتى رأينا من بعيد قطاع الطرق يستعدون للهجوم علينا، لكننا رددناهم على أعقابهم في الحال مما أجبرهم على الانسحاب والفرار. لكن عشرين رجلاً تقريباً تقدموا من القافلة طالبين لبناً وتمراً، ولم نر من الفطنة أن نردهم إذ أنّ طلبهم لم يكلفنا شيئاً يستحق الذكر فأعطيناهم ما أرادوا وانسحبوا انسحاب الأصدقاء.

---

(١) لم يكتب شيئاً عن مرحلة العاشر من كانون الأول.

بعد أن عبرنا «جرب الغنيم» توغلنا في مسار مطروق إذ يسير فيه العرب عند توجههم إلى طيبة ومسكنه وهما بلدتان في الصحراء سنتحدث عنهما حالاً.

هنا في جرب الغنيم تظهر الصحراء بكل عريها ووحشتها!.. تصوروا أرضاً مستوية ممتدة لا حد لها حيث يمتد البصر نحو أفق مضبب، ويبحث الناظر بلا جدوى عن شيء يستوقف نظره فلا يرى. سطح واسع رتيب وباهت، ووحدة مخيفة قاحلة حيث وجدت الطبيعة قبراً لها. صمت ثقيل أبدي يخيم على تلك المنطقة التي تسمى الشامية حيث لا أثر لحيوان أو لطير. لقد حدث مراراً خلال الرحلة أني تسلقت المرتفعات وحاولت النظر في هذا المكان الموحش الممتد تحت قدمي، فكنت أرى القافلة كنقطة في بحر الرمل العظيم هذا، واقتنعت أنه ليس من يستطيع العيش في بيئة قاسية كهذه غير العرب.

مرحلة الثاني عشر من كانون الأول
وادي المياه - عنزة

سرنا ثماني - ساعات باتجاه الغرب، ثم الشمال - الغربي، على أرض منبسطة سبخة مغطاة أحياناً بمعدن أبيض هو على ما أعتقد الطلق، أو هي مغطاة في أماكن أخرى بطبقة جلاتينية رخوة بيضاء اللون توقفنا عند آبار يقال لها «الجهار» وكانت مياهها مرة المذاق.

وفي طريقنا مررنا بواد صغير اسمه وادي المياه.

رأينا من بعيد عن يمين الطريق ويساره خيام عرب العنزة وقطعانهم وقد تجمعت عند الآبار التي تكلمنا عليها. وكان بعضهم قد صعد إلى المرتفعات لينظر إلينا ونحن نمر من أمامهم. كانوا شبه عراة، وأجسامهم نحيلة ومشوهة، لقد دبغ الحر جلودهم فأصبحوا كالمومياوات.

كان اسم شيخهم ابن حريميس، وله حق استيفاء الضريبة من القوافل المارة بدياره، فقدم إلينا ليتسلم من منصور الضريبة ومقدارها ٥٠٠ قرش إضافة إلى بعض الهدايا وهي: عباءة وقهوة وتمر.

شرح لي بعض العرب عن تلك القشرة الغريبة الجلاتينية التي نوهت بها أعلاه، قال إنها تتكون باختلاط عصير بعض النباتات البرية مع الأرض الصلصالية عندما ترتفع الرطوبة فيقوم عرب الصحراء بجمعها بعناية وتباع في المدينة حيث تستعمل لصبغ الأقمشة. ولا أعلم مدى قيمة هذا الكلام لكني أرى أنها مادة نباتية.

مرحلة الثالث عشر من كانون الأول
جبال طيبة

مسيرة اليوم استغرقت تسع ساعات.

الاتجاه شمال - غرب.

الأرض التي سرنا عليها سهلة ومغطاة بالأشواك.

توقفنا في وسط الصحراء.

في منتصف الطريق عبرنا الممر الذي يؤدي من سكنة إلى الدير.

ورأينا أمامنا ثلاثة جبال بيض، اثنان منهما قريبان هما جبال طيبة، أما الثالث ويقع إلى الغرب فهو جبل سكنة وصارت سلسلة البشيري إلى اليمين على بعد أربعة فراسخ أو نحو ذلك.

هنا أدركنا حامل البريد قادماً من بغداد متوجهاً إلى حلب، وسلمني رسائل من أصدقاء عديدين في تلك المدينة أي بغداد، مع العلم أنه قد انطلق قبل ثمانية أيام فقط.

مرحلة الرابع عشر من كانون الأول
قصور الأخوين

مسيرة تسع ساعات ونصف.

الاتجاه شمال - غرب.

الأرض غير متساوية، بعضها مغطاة بالحصى، وأحياناً بالعشب مما يشير إلى أنها كانت مسكونة.

التوقف في وسط التلال أمام طيبة.

سرنا في ذلك اليوم في سهل رائع يقع بين سلسلتي جبال متقابلتين تقريباً، والمسافة بينهما تقدر بأربعة فراسخ: سلسلة البشيري إلى اليمين، والدويشة إلى اليسار. يقدر طول هذه السلسلة إلى نهايتها العليا التي تصل إلى سكنة نحو ١٦ - ١٧ فرسخاً ويظهر أنّ سكنة هي بالطول نفسه.

عند الظهر سرنا بمحاذاة أخربة كانت في قديم الزمان حصناً ويطلق على هذه الخرائب اسم «المندمة». لاحظت وجود قطع مجاورة مستديرة أظنها بقايا رحى قديمة.

بعد مسافة قليلة من هذا الموقع مررنا بقناة[١] معلقة مشيدة بحجارة كبيرة منجورة. وبعد ربع ساعة رأينا قناة أخرى من الطراز نفسه؛ كلاهما ينطلقان من قصور الأخوين التي تكلمت عليها تلك التي رأيناها شمالاً من مسافة بعيدة.

أثار فضولي منظر قصور الأخوين لأنّ طريقة بنائه تعود على ما يظهر

---

(١) تتجه القناة الأولى بخط مستقيم جنوباً فتصل إلى بنايتين لم أستطع تمييزها بسبب تعرج الأرض. أما القناة الثانية فتتجه إلى الجنوب - الغربي وتضيع في الدويشة التي كان فيها على ما نقل إلينا بساتين غناء (إضافة للمؤلف).

إلى حقبة قديمة. فأخبرت منصور عن رغبتي الحارة للذهاب إلى ذلك الموقع وتفقده، أقله جانب اليمين من البنايات الذي هو أقرب إلينا، فدعاني للتريث فالوقت متأخر والحذر واجب، ولا بد من اتخاذ الاحتياط اللازم من أجل سلامتي ففي تلك الأماكن يختبي الغزاة وقطاع الطرق. ثم وعد بأخذي إلى هناك في اليوم التالي مع عدد جيد من حملة البنادق لحراستي. وبانتظار الزيارة، سأسرد ما سمعته من العرب الذين شاهدوا قصر الأخوين: حسب التقليد الشفهي المتواتر بين الأعراب إنّ هذه البنايات شيدت من قبل أخوين توأم من محتد كريم، وبعد أن اعتنقا الإسلام قدما إلى هذا المكان ليبتعدا عن سائر العرب الذين لم يدخلوا الإسلام بعد في زمن الخلفاء الأوليين إذ بقوا على الوثنية. وبفضل المثابرة على العمل توصلا إلى القضاء على الأرض الجدباء فتحولت مع الزمن إلى جنة غناء حيث الثمار اليانعة والماء الزلال والمناخ الحسن والمواقع الريفية الخلابة. لكن هذه المناظر الجميلة، وهذه الخلوة الهادئة لم يعد لها وجود اليوم، فالتهاون من جهة وعادة التخريب عند البدو الذين لم يعرفوا أبداً منافع الطبيعة ونتاج الصناعة أدت مع الزمن إلى زوال كل ذلك ولم يبق منه إلا الذكريات.

حدثوني أيضاً عن كتابة عربية تقرأ على قوس في أكبر البنايات ومفادها: «أيتها الأجيال القادمة، اعلموا أننا ملأنا هذا القصر بالعنب والتين، وأنتم ستملأونه بروث الجمال ومواد الخراب»!

مرحلة الخامس عشر من كانون الأول
وصف قصور الأخوين وطيبة

مشينا ساعتين ونصفاً في جو ممطر وكان الاتجاه نفسه كالأمس. أما الأرض فكانت صلصالية تحيطها التلال والأخربة. وتوقفنا في طيبة.



قصر الأخوين (رسم تخطيطي للمؤلف)

وقبل أن أتكلم على طيبة، سأتحدث عن قصور الأخوين التي لحسن حظي زرتها في ذلك اليوم. فقد انفردت عن القافلة منذ الفجر وكان الجو مشجعاً، ورافقني أربعة رجال من أتباع منصور مدججين بالسلاح إضافة إلى اثني عشر رجلاً من المشاة حاملين البنادق. فسرنا باتجاه الشرق من خلال الأكمات والأرض الرخوة المليئة بالأحجار الصغيرة وبعد ساعة أو نحو ذلك وصلنا إلى هدفنا.

يقوم بناءان قديمان في وسط أرض منبسطة حجمهما غير متساو، وشكلهما مربع إذ أنّ واجهاتهما تقابل الجهات الأربع. القصران مشيدان بحجر منجور[1]. المسافة الفاصلة بينهما نحو عشر خطوات لا أكثر. جدران البناء الكبير طولها ٢٠٠ خطوة وعشرون ارتفاعاً. وهذه الجدران مدعومة بتسعة أبراج دائرية الشكل بعيدة الواحد عن الآخر. والأبراج مقببة. يكاد نصف البناء المواجه للشرق يتهاوى وكذلك بعض من القسم

(١) وهو غير صلب، يميل إلى الحمرة، حسن الزوايا، حسن الترتيب في البناء بواسطة مادة لم أتوصل إلى معرفة تركيبها (تعليق المؤلف).

الشمالي والركن الرابط بينهما. أما القسم المتبقي فهو بحالة أفضل. يوجد باب في وسط كل واجهة من الواجهات. والباب المواجه للشرق فهو مفتوح أما الأبواب الثلاثة الأخرى فقد سدت بالبناء من عهد بعيد على ما يظهر.

أما في الداخل - والكلام يدور عن القصر الكبير - فإنه يقدم أخربة هندسية متينة ومتقدمة على بساطتها. ففي الأعلى على طول الأسوار التي تحمي القصر هناك أرض محمية من جهة الريف بحاجز متوسط الارتفاع. كذلك الأبراج عليها حواجز وهي أشبه ما تكون بغرفة المراقبة.

هناك قوس قائم على دعامتين مرتفعتين في وسط الساحة، وعلى القوس كتابة بحروف عربية زال بعضها، استطعت أن أقرأ: «... مسكن السعد لسعيد بن جمال الدين». وعلى خطوات قليلة مقابل هذا القوس يوجد ما يشبه القبو يعلوه سقف عريض خسف مع الزمن، وفي ظني أنه كان خزاناً للماء.

يلاحظ وجود بقايا شرفة إلى يسار باب المدخل لا تزال أقواسها قائمة. وهذه الأقواس تستند على أعمدة مربعة يشكلان من جهة خطين متوازيين مقابلين للواجهة الشرقية؛ ومن الجهة الأخرى خطاً واحداً أمام واجهة الجنوب. وعلى بعد مسافة قليلة يوجد عامود على حدة قريب من العامود الأخير، وفي أعلاه كتابة بالخط الكوفي لم أستطع في أول الأمر تمييز حروفها لارتفاع موقعها، ثم تمكنت بعد ذلك - بعد أن رفع العرب المرافقين لي - الحجر القائم أمام الكتابة، فقرأت ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ومحمد رسوله. شيدت هذه المدينة بأمر عبد الله هشام أمير المؤمنين. وهذا بناء أقامه أهل حمص على يد سليمان بن عبيد في السنة العاشرة».

أما القصر الثاني فهو أصغر من الأول بقدر النصف، أي نحو مئة

خطوة، جدرانه عريضة وعالية بما يناسب البناء. إنه مشيد بحيث أنّ الباب - ليس له غير باب واحد من جهة الغرب - يقابل باب العمارة الكبيرة. توجد كتابة عربية باللون الأحمر فوق الباب من الداخل، والكتابة قد طمست معالمها لذلك لم أستطع قراءتها.

يوجد برج دائري الشكل في كل ركن من البناء. وبرجان دائريان في وسط كل واجهة والبرجان متصلان ببعضهما. في داخل البناء: في شرقه وشماله وجنوبه؛ توجد غرف مسقفة لكنها الآن في حالة تساقط وخراب، وعلى ما يظهر أنها كانت بطابقين. كما لاحظت وجود بناءين هما على ما يبدو لي أضرحة.

إنّ حالة هذا القصر أقل خراباً من الأول. حاولت بلا جدوى العثور على الكتابة التي حدثني عنها رفاق سفري كما ذكرت، فلم أفلح.

هناك مئذنة مبتورة مربعة الشكل قرب الأبواب بين القصرين لا تزال قاعدتها موجودة وتحيطها الأنقاض.

كنت أتمنى البقاء مدة أطول في هذا المكان لكي آخذ جميع القياسات: للأقواس والعقادات، والبحث عن كتابات جدارية أخرى، ومن أجل إعداد خارطة حسنة للأثر المتداعي؛ لكن منصور كان يخاف من مفاجآت مزعجة كان يحثني على الرحيل وكان لا بد لي من العمل بكلامه. كل ما استطعت فعله هو أني رسمت بالقلم على وجه السرعة - رغم المطر الذي بدأ ينهمر علينا - واجهة القصرين حيث يمكن رؤية الداخل بشكل أوسع.

ولنعد إلى قناة الماء التي ذكرتها. فأول شيء أني لم أر أثرها داخل قصور الأخوين حيث أفترض أنها مدفونة تحت الأنقاض، لكني عرفت بأنها تأتي من منطقة «كوان» فهناك تتجمع ينابيع عديدة، مياهها طيبة، وبعضها معدنية وحارة. وتقع على بعد أربعة فراسخ إلى الشمال من

البناء موضوع البحث، وهناك ينابيع «الدوميات» المعدنية التي تقع بنفس الاتجاه على بعد فراسخ قليلة من «كوان».

إنّ الكتابة المنقورة في الحجر في داخل القصر الكبير التي نوهت بها كما مر بنا تذكر اسم مدينة يظهر أنها كانت معتبرة طالما أمر ببنائها أحد الخلفاء المشهورين. لكني لم أجد أي أثر يدل على وجود قصور الأخوين مما جعلني أستنتج بأنّ هذه الكتابة حملت إلى القصر من مكان آخر، من الرصافة مثلاً تلك المدينة التي شيدها هشام ذاك الذي - على ما يذكره المؤرخون العرب - كان يملك من أصائل الخيل أربعة آلاف رأس لاستعماله الخاص[1]. ولكن ماذا نقول عن هذين القصرين المنعزلين اللذين لم يذكرهما أي من الجغرافيين. أيكونان حقًّا من عمل هذين الأخوين اللذين رويت أسطورتهما نقلاً عن الأعراب؟ أم هما مخزن عتاد أراده الخلفاء من أجل تسهيل عملية قطع الصحراء؟ الشيء الأكيد أنهما عمل يرجع إلى العهد الإسلامي فالمئذنة التي لا تزال منتصبة - ولو مبتورة - هي أكبر دليل على ذلك. وفي نهاية الأمر، فإنّ بقايا القصرين لا تدل على قدمية موغلة في الزمن، بل في أكثر الاحتمالات أنها تعود إلى صدر الإسلام لا أكثر.

والآن لنلق نظرة على **طيبة**:

بعد أن انتهينا من هذه الزيارة، التحقت بالقافلة نحو الساعة العاشرة، وإذ كانت القافلة قد انطلقت وهي سائرة في طريقها منذ الصباح الباكر، فقد حل في ذلك الحين موعد توقفها وبعد التحاقي بها بقليل توقفت القافلة كلها عند تلة مليئة بالصخور البيض والأخربة التي تدل على أنه كانت هناك مدينة مأهولة وبعد أن غادرها أهلها وأصبحت خراباً

(١) كتب المؤلف في الهامش: يزعم ابن شحنة أنّ الرصافة هي مدينة قديمة شيدها الرومان.

فإنّ عرب الجوار استفادوا من أنقاضها لبناء بيوتهم؛ لكن هذه البيوت فرغت من ساكنيها كما يبدو؛ وأرى أنهم هجروها خوفاً من هجمات الوهابيين. لقد ذهبوا فحلوا في سكنة التي تبعد قليلاً من هناك.

إنّ مئذنة طيبة لا تزال قائمة وهي مربعة الشكل، ينتهي أعلاها بقوس حاد. رأيت في قسمها الأعلى كتابة غير مؤرخة بما معناه: «ليلهم الله الخيرين والصالحين الحنان والرحمة نحو الفقراء والمساكين».

وفي تجوالي في أطلال المدينة توقفت عند باب مشيد بقطعة واحدة من الحجر يحمل أسماء رحالين أوروبيين عديدين مروا من هناك في فترات مختلفة منهم:

شفالية دي سان لوبان ١٧٥٦.

وليم روبت.

ديكر.

لاتوش سنة ١٧٨٥.

جونس . . . وغيرهم.

وكم تأثرت عندما رأيت اسم والدي بين هؤلاء الزوار! أذكر جيداً أنه مر هنا قبل ٢٦ عاماً مع والدتي وكنت معهما وعمري آنذاك أربع سنوات؛ ولذلك توقفت لأكتب اسمي على باب طيبة على مثالهم.

منظر الريف المحيط بطيبة جميل جدًّا، إذ تشاهد آثار الزراعة التي مارسها سكانها. هناك ينبوع عين معدنية، ماؤها حار، وهناك بئر ماؤها لذيذ لحسن حظ المسافرين ومن هنا جاء اسم المكان «طيبة».

أذكر أني قرأت في كتاب «رحلات بيترو ديللافاليه»[1] أنه في عهده

---

(١) رحلة ديللافاليه إلى العراق، المرجع المذكور، ص ٢٧ و١٧١.

كانت طيبة قرية عامرة ومزدهرة وأنّ قوافل الصحراء كانت تمر بها يوميًا قادمة من مختلف الجهات، وكان التجار الأوروبيون العاملون في حلب يعينون ممثلاً لهم في طيبة يسهر على مصالحهم وبضائعهم.

● ويكمل السفر إلى حلب...

أخيراً في ٢٣ كانون الأول ١٨٠٨ وبعد مسيرة خمس ساعات باتجاه الشمال على طريق محاط من الجهتين بأرض خضراء تتناثر عليها القرى الجميلة، وصلنا إلى حلب بعد سفر استغرق شهرين...



مراجع الكتاب



- الآلوسي، محمود شكري: تاريخ مساجد بغداد وآثارها، تهذيب محمد بهجة الأثري، بغداد - ١٣٤٦هـ.
- الأرضروملي، قدري: الخيل العراب وفضلها على الأنساب العالمية، بغداد ١٩٧١.
- ابن سند، عثمان الوائلي البصري: مطالع السعود، تحقيق د. عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي، بغداد ١٩٩١.
- باقر، طه وسفر، فؤاد: المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، بغداد ١٩٦٢.
- البندينجي، صفاء الدين عيسى بن موسى (ت ١٢٨٣ / ١٨٦٦م): تراجم الوجوه والأعيان في بغداد وما يليها من البلدان (مخطوط في دار الآثار رقم ١١٣٦٠) طبع مؤخراً بتحقيق أسامة ناصر النقشبندي ومهدي عبد الحسين النجم التكريتي: الدار العربية للموسوعات / بيروت - لبنان
- وديع ياسين: مبادئ الفروسية الحديثة، الموصل - ١٩٨٤.
- د. جواد مصطفى و د. سوسة، أحمد: دليل خارطة بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد - ١٩٥٨.

- الحديثي، عطا وعبد الخالق، هناء: القباب المخروطية في العراق، مديرية الآثار العامة، بغداد ١٩٧٤.
- السامرائي، يونس ابراهيم: مراقد بغداد، بغداد ١٩٨٩.
- السلمي، عبد الرحمن: طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦.
- سوسة، أحمد: ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، بغداد (١) ١٩٤٨ (٢) ١٩٤٩.
- سوسة: فيضانات بغداد، بغداد ٣ أجزاء، مطبعة الأديب البغدادية.
- العزاوي، عباس: تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد ١٩٥٤.
- العزاوي: تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، بغداد ١٩٥٨.
- العزاوي: قبائل العراق، بغداد ١٩٣٧.
- عزيز السيد جاسم: متصوفة بغداد، بغداد ١٩٩٠.
- غنيمة، يوسف رزق الله: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، الطبعة الثانية، لندن، ١٩٩٧.
- القشيري، عبد الكريم (ت ٤٦٥ هـ): الرسالة القشيرية في علم التصوف، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت ١٩٩٨.
- الكركوكلي، الشيخ رسول: دوحة الوزراء، ترجمة موسى كاظم نورس، بيروت ب.ت
- كحالة، عمر رضا: الأعلام.
- كحاله: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط ٨، بيروت ١٩٩٧.

- لسترانج، كي: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٤.
- لونكريك، ستيفن همسلي: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، ط ٤، بغداد - ١٩٦٨.
- المعاضيدي، د. خاشع: أعالي الفرات، بغداد ١٩٨٦.
- الوردي، د. علي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، بغداد ١٩٦٥.
- الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الأول، بغداد ١٩٦٩.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط. وستينفيلد.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس المحتويات